إقرأ

دماء فى الفجر

فى سبيل الحرّيّة



تكملة القصة التى بدأها الرئيس جمال عبد الناصر

فاروق حلمى

دار المعارف بمصر

دماء في الفجر

في سبيل الحرية

فاروق حلمى

دماء فى الفجر

فى سبيل الحرّية

التكملة الفائزة بالمرتبة الثانية للقصة التى بدأها السيد الرئيس جمال عبد الناصر وهو طالب بالمدارس الثانوية ، عن معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ، فى المسابقة التى أجراها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

اقرأ ٢٨٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٣ – يولية سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

تمهيد

يوم لا ينسى . . .

هذا اليوم العابس أوله ، الباسم آخره ، فى عام ١٨٠٧ . . .

قال الإنجليز هذه مصر استقلت عن الترك وحكمت نفسها ، وهى على هذا لقمة سائغة تمضغ وتبتلع ، إذ ماذا تستطيع ملايينهم الثلاثة أن تصنع أمام أسطول بريطانيا وجيشها المدرب العظيم ومدافعها وقنابلها ؟

قال الإنجليز هذه هى الفرصة قد سنحت لتحقيق حلم قديم ، وأمل طالما جاش بنفوس الإنجليز القدماء .

وما هى إلا أسابيع حتى رست على شاطئ الإسكندرية أساطيلهم ، ودوت القذيفة الأولى من قذائف الجيش البريطانى . . . وهم يظنون أنها مسمار كبير فى نعش الحرية والكرامة المصرية ، وعن قليل سوف تكفن هذه الحرية وتوسد فى قبرها ويهال عليها التراب .

أصبحت الإسكندرية ذات الماضى الحافل تتقد ناراً وتشتعل ، ناراً رأى المصريون على ضوئها أفظع صور الظلم والجشع والطغيان . .

هام أهل الإسكندرية على وجوههم ، وخرجوا بأطفالهم ونسائهم ، لا يعرفون مصيرهم ، وبيوتهم من ورائهم تعصف بها عواصف الجحيم . . .

نار فى كل مكان . . . نار فى المدينة ، ونار فى القلوب .

والإنجليز سعداء بالنصر الذى فازوا به . . .

ونزلت الجيوش الإنجليزية إلى المدينة تزهو بالنصر : وسارت حتى

وصلت إلى رشيد ، وكانت إذ ذاك بلدة تشعر بقوميتها ، فهبت كرجل واحد ، ولم تنتظر أمر الحاكم بل دبرت أمرها بنفسها ... فقسمت رجالها قسمين : قسماً ذهب إلى الحماد يستدرج الإنجليز إلى المدينة ، وقسماً بقى فى الدور لا يشعر به أحد هناك .

وعندما اقتحمت فلول الأعداء المدينة ، صب عليهم الموت من تلك النوافذ المغلقة .

الفصل الأول

كانت الليلة حارة جافة من ليالى أوائل سبتمبر، وكان الليل قد ولى ولم يبق على طلوع الفجر غير ساعات ، وكان الهلال قد احتجب منذ ساعات وراء حجب كثيفة من الغيوم المتلبدة فى جهة الغرب ، ولم يسمع أى حس ولا صوت فى الحماد التى وقفت عندها الحملة الإنجليزية تتربص ، ومن جهة الشمال كانت تقوم معسكرات الجنرال فريزر ، وكانت خطوات الحراس المتزنة تقطع السكون التام المستولى على تلك الجبهة . . .

أما فى الجنوب فقد أقام مراد باشا البطل ، هو ورجاله المخلصون غير المنظمين الذين حاولوا أن يستفزوا العدو إلى القتال المباشر . ولكن محاولاتهم ذهبت هباء... وفى تلك البقعة ساد السكون أيضاً كما ساد فى البقعة الأخرى ، واستولى التعب على الحراس فناموا فى مراكزهم ... كان الجميع يغطون فى سبات عميق تلك الليلة . وكان مراد باشا فى خيمته الخاصة مستغرقاً فى النوم من شدة التعب بعد سهر متواصل دام ليالى طويلة كما نام حراسه إلى جانبه .

وفى ذلك السكون المخيم بدأت حركة هادئة فى خيام الجنرال فريزر . وبدأت أمواج الأجسام البشرية تتحرك ببطء فى سكون الليل البهيم ، وكانوا يقصدون خيمة مراد باشا ، فكانوا لا يتكلمون إلا همساً ، وهم يتقدمون بسرعة وهدوء ، فى سكون الفجر وصمته ، فكان سيرهم شبيهاً بزحف الأفاعى الهائلة .

وقال قائل منهم بهمس : اسمع ياسير ولنجتن ؛ دع الكابتن برسى يفاجئ الحراس وادخل أنت مباشرة خيمة مراد باشا فاقتل حراسه واقبض عليه .

وما إن انتهى الهمس حتى جد سير ولنجتن فى السير على رأس ستمائة من رجاله المختارين ،وكان كل منهم يلبس قميصه حتى يمكنهم أن يميزوا بعضهم بعضاً حينما يختلطون بالأعداء فى أثناء المعركة ، ولم يكن يفصل بين معسكرات فريزر ومراد باشا سوى نحو ميل من الأرض السهلة المنبسطة . وبينما كان القوم يتآمرون ويتوعدون ويدبرون الخطط ، كان أهل الحماد مستغرقين فى نوم عميق . . .

وكان سير ولنجتن وجمعه المتحرك قد قطعوا نصف المسافة، وكان من الصعب جداً تمييز القمصان البيضاء لشدة الظلام المخيم ، حتى ليخيل إلى الرائى أنهم أشباح ، ولم يبق أمامهم سوى نصف ميل أو أقل حتى يصلوا بزحفهم . هذا وقوم مراد باشا لا يزالون يغطون فى نومهم . . وفى تلك اللحظة تقدم شخص من الحراس فأيقظهم . وامتدت يده القوية إليهم حارساً تلو حارس فهزتهم هزاً عنيفاً ، وهو يصيح وسط الظلام : هلموا ، استيقظوا ، فالعدو مقبل عليكم ليأخذكم على غرة ويفتك بكم وأنتم نيام .

وقبل أن يتمكن الحرس من الاستيقاظ تماماً ، كانت اليد نفسها قد وصلت إلى الحرس الخاص لمراد باشا وهزته بشدة وعنف ، وعلا الصوت نفسه وهو يقول : استيقظوا ، فقد وصل الإنجليز إليكم . وفى خيمة مراد باشا بدا نور ضئيل ، وكان الباشا مستلقياً على الأرض مدججاً بالسلاح كامل العدة ، فلما طرق الصوت سمعه وبدأت الحركة ، أفاق من نومه فى الوقت المناسب ، ووثب واقفاً فلم يجد أحداً معه فى الغرفة ، ولكنه لمح ظلاً مبهماً لرجل طويل القامة يبرح الخيمة بسرعة زائدة ، فظن أنه فى حلم ، وأن ذلك المنظر لم يكن إلا كابوساً مخيفاً ، ولكنه وجد المعسكر قد عادت إليه الحياة .. وتجاوب نداء القتال، وصلصلة السيوف وصهيل الخيل وأوامر الضباط تلقى فى كل جهة .. . ولكنه وجد عبارات مكتوبة

على الخيمة ، هذا نصها : « هجوم ليلى . . . فإن ستمائة رجل يزحفون عليكم ، وبينكم وبينهم الآن أقل من نصف ميل » .

وكان السير ولنجتن قد أصبح على بعد ربع ميل ، فسمع بأذنيه هذه الأصوات كلها وشعر بحركة الجند وهم يتأهبون ، فعلم أن تلك المفاجأة التى دبرت بروية وبمنتهى التكتم قد أخفقت، وإذن فليس عليه إلا أن يرجع خائباً إلى معسكره ، إذ لم يعد فى وسعه اقتحام معسكر عدوه ، لأن ستمائة جندى لا يكفون لخوض موقعة حاسمة ، ولأن جنود مراد باشا يحاربون ببسالة وإقدام، وارتدت الجنود كالأمواج إلى الخلف تجر أذيال الخيبة والفشل .

ولما وصل سير ولنجتن إلى المعسكر ثانياً ، اضطر أن يعترف أمام رئيس الحملة الجنرال فريزر بفشل المفاجأة التى كانت قد أعدت معداتها بنظام دقيق .

قال سير ولنجتن ، وقد بدا الغضب والتذمر على وجهه : « لقد كانت الخيام كلها فى الحماد تتحرك فلم أجرؤ على الهجوم ، لأننا كنا نعتمد فى الفوز على المفاجأة » . فاحتج فريزر وأخذ يصخب ، ويسب ويلعن ، وقال :

— ومن الذى أفشى لهم الخبر ؟

فزأر ولنجتن كالأسد الغاضب وقال : لا بد أن الشيطان المقنع هو الذى أنذرهم .

وفى الناحية الأخرى من البلدة ، كان الرجل المدعو « المقنع » يتأهب للاختفاء بهدوء كما ظهر .

الفصل الثانى

فى اليوم التالى وقف فريز داخل خيمته ، هو والسير ولنجتن وأركان حرب الحملة وهو يهدر ويصخب كالبركان الثائر ، وكان يقطع الخيمة ذهاباً وجيئة ، ولم يجرؤ واحد على مفاتحته فى الكلام حتى تكلم وحده فقال : لقد أخفقنا فى ست معارك الآن مع مراد باشا ويظهر أنه يتلقى إنذارات فى الوقت المناسب . . .

فقال السير ولنجتن : لقد كانت كلها مدبرة تدبيراً محكماً ، وكان رجالنا يسيرون صامتين كالأشباح فى ليل بهيم شديد الظلام ، ولكن فى كل مرة كان هناك من ينبئه بقدومنا إذ كنا نجد خيامه كلها فى حركة ، فكنا نضطر إلى التقهقر ، فمن غير إبليس أعطاه الإنذار ؟

— جاسوس أمهر منك وأشد حيطة !

فصاح أحد القواد :

— إننى أجزم بأن هناك عاملا خفياً يحرس حياة ذلك الرجل . إن قومه — كما أخبرنا أحد جواسيسنا — يتحدثون عن رجل طويل القامة عريض المنكبين ، وبعضهم يدعوه بالمقنع ؛ وهم يظنون أن القوة التى تحميهم قوة علوية . . . ولكن يظهر أن أحداً لم يره ، فكأنه حقاً رسول من إبليس نفسه .

ولم يكد الرجل ينتهى من قوله حتى ساد الغرفة صمت رهيب ، فاصفرت الوجوه واضطربت الشفاه ، فرسم سير ولنجتن نفسه علامة الصليب ... إن أولئك الرجال الذين كانوا يتحدثون بذلاقة وعنف ، ويطربهم قتل الأبرياء ، غلبتهم الخرافات على أمرهم ... هؤلاء الذين يطربهم تعذيب الناس ، ذعروا وملكهم الخوف ، فرددت شفاههم المضطربة

صلوات كاذبة طلباً للرحمة من الله الذى كانوا يعصونه كل يوم بأفعالهم.
وحين عاد فريزر إلى الكلام كان خافت الصوت فقال : « سواء أكان الذى أنذرهم إبليس أم غيره ، فهذا لا يهمنا : إنما الذى يهمنا هو أن ننفذ أوامر ماكنا وتتم الاستيلاء على مصر » ... وصمت قليلا ثم قال : « ليس ينقصنا إلا أن يكون لنا داخل المدينة جواسيس مهرة ، لكى يعرفوا كل الخطط التى تدبر » .

قال ذلك ونظر نظرة احتقار إلى الموجودين . فأجابه السير ولنجتن ، بأن الجاسوس ٥٦٦ قد أرسل اليوم إشارة يقول فيها : إن رشيد ضعيفة جداً ، ويمكن الاستيلاء عليها ، إذ أن الإبطاء يمكنهم من جمع صفوفهم. وقد وصل إلى خبر آخر ، وهو أن محمد على باشا قد صمم على الهرب إلى سورية ، بعد أن رأى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزناه فى الإسكندرية ودمنهور ، فهو الآن يحارب المماليك فى الصعيد . أضف إلى ذلك أنه لم يفكر فى إرسال عدد من الجيش إلى رشيد . وإنى متعجب لهؤلاء القوم الذين يقاومون جيشاً كبيراً وهم ضعفاء جداً إذ ليس لديهم ذخيرة ولا سلاح.
عند ذلك ظهر الابتسام على وجهه وقال :

ــ هذه أخبار سارة جداً ، وعلى كل حال سوف ننتهى فى مدة قصيرة من هؤلاء القوم ، وبعدها تصير مصر ، من أولها إلى آخرها ، تابعة للتاج البريطانى .

وعند ذلك وقف الجميع إجلالا للتاج البريطانى .

الفصل الثالث

جلس محسن على كرسى منخفض، وغطى وجهه بيديه ، وجلست أمه أمامه، وقد لفت رقبتها بشالها من البرد، وأخذ محسن يفكر تفكيراً عميقاً، حتى إنه نسى أنه جالس مع أمه ... وراح يتصور الموقف، فقد كان هذا اليوم محدداً لحفلة عرسه ، ولكن البلدة أخذت بقدوم العدو إليها، فكان من جراء ذلك تأجيل العرس إلى ما بعد الموقعة ...

لقد كانت وداد وهى من علية القوم وابنة أحد أشراف البلدة ، ذات عينين سوداوين ناعستين وشعر مسترسل على جبينها ووجه مثل البدر وسط السحاب ... أخذت هذه الصورة الجميلة تتراءى لمحسن وتسيطر على عقله وهو جالس فى الشرفة مع والدته ... وراحت الحوادث الماضية تكر أمامه ، فقد كان ، بعكس أخيه إبراهيم، خاملا لا مكانة له فى القرية .

كان جالساً ذات يوم فى مزرعة فى الطرف الشرقى للمدينة يغنى أغنية شعبية ، فاستولى عليه النوم ، ولكنه قام فزعاً على صوت استغاثة ونباح كلب ، فوجد فتاة تجرى ويتبعها كلب ضخم الجسم، فما كان منه إلا أن هجم على ذلك الكلب وضربه بعصاه حتى جعله يفر من أمام هذه الفتاة الحسناء، فشكرته الفتاة، وعرفته أنه الآن فى مزرعة أحمد بك عاصم والدها . وعند ذلك تآلفت روحاهما وصار يقابلها كثيراً فى تلك المزرعة بدون علم والدها .

وكان لتلك الفتاة ابن عم مغرم بها اسمه «حسن» ، وطالما عرض عليها قلبه فكانت ترفضه بإباء وشمم . وقد أقسم ذلك الشاب أنه سينتقم منها فى يوم من الأيام ، وقد رابه خروجها كل يوم فى وقت الغروب وتوجهها إلى الحقل منفردة، بدون علم أحد من أهل المنزل . وذات يوم اقتفى أثرها

فوجدها تتلاقى مع محسن بجانب الغدير . وعلى حين غرة خرج من مخبئه ، وفاجأهما معاً ، ونظر إلى محسن نظرة احتقار وقال له : أيها السافل الدنىء ، ماذا تفعل فى تلك المزرعة ؟ !

فقالت وداد : .

– إنه فى هذه الأرض بدعوة منى .

– لا عهد لى بأن الرجال يحضرون بدعوة النساء . . ما هذا إلا لص مجرم . . . ولكن ما بالك تدافعين عنه ؟ !

ولم يخف ما كان عليه من حنق شديد ، ومحسن ينظر إليه والضحكة الهازلة لا تفارق فمه ، كما لم تفارقه نظرة الاحتقار .

عند ذلك تركهما حسن وذهب يعدو نحو المنزل ، فقالت وداد لمحسن :

– بالله عليك اذهب ، فإنه لا يلبث أن يرجع مع رجال المزرعة فيمسوك بضرر . . .

واستجاب محسن لنصيحتها ومضى إلى منزله ، وفى اليوم التالى ذهب هو ووالده إلى والد الفتاة وخطبها منه ، وحدد العرس فى هذا اليوم ، ولكن الاحتفال به تعطل بمناسبة هجوم العدو لاحتلال رشيد .

أفاق محسن من تأملاته على صوت والده يقول له : فيم تفكر ؟ . . . لقد جند كل شبان البلدة ليذودوا عن نسائهم وأطفالهم ، فما بالك تحبس فى المنزل ولا تخرج لتدافع عن بلدتك مع المدافعين عنها ؟ . . . هل تبقى طول حياتك . . .

فقاطعته زوجته قائلة : لقد خرج إبراهيم وتجند ، فليبق محسن معى فى المنزل . إنى لا أستطيع ذلك . . . فماذا أصنع بعد ولدى ؟ وهل يلذ لى العيش بعدهما ؟ . . . هل تجرد قلبك من محبتهما فتريد أن توردهما موارد التهلكة ؟ !

ـ لا تظنى ذلك أيتها الزوجة العزيزة ، فإننى لست أقل محبة لهما منك، إنما أنا أكثر منك وطنية ... هل تفضلين حياة ابنك وموتنا نحن فى ذل الأسر ورق العبودية ، أو موته وحياتنا فى نعيم الحرية ؟

وصمتت فجأة لأن السكون الذى كان مخيماً على المدينة، قطعته أصوات أغنية شعبية وطنية وهتافات عالية . . .

حدث كل هذا ومحسن لم يتحرك من مكانه ، فقد كان لا يأبه لأحد فى الوجود ، وعاش طول حياته خامل الذكر ، فما الذى يجعله الآن يقوم ويتحمل كل هذه الأهوال ؟! لقد نظر إلى والده وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة المستهترة التى اشتهر بها فى البلدة، فما كان من والده إلا أن خرج من المنزل وهو يتمتم بكلمات تدل على الغضب والتذمر .

الفصل الرابع

جلس إبراهيم مع أمه فى الصباح ، إذ كان يقوم بمهمة فى المدينة ، فسألته أمه قائلة : هل رأيت أخاك محسناً ؟

فأجاب قائلا : لا . . . هل رأيته أنت ؟

أجابت : رأيته لحظة واحدة .

ـ وماذا قال ؟

ـ إنك تعرف محسناً، فإنه أبدى إعجابه بشجاعة المتطوعين فى شىء من الدعابة. وقبل أن يبدى إبراهيم استياءه عادت الأم إلى الكلام فقالت :

ـ لا تلم محسناً ، فهو كما خلقه الله . . . إنه لا يبالى شيئاً .

ـ إنه لا يعنى إلا بلذاته وشهواته ، لقد سمعت أنه كان بالأمس مع عدد من الماجنين يضحكون ولا يأبهون لتلك المحنة التى يجتازها البلد .

وقام الشاب ليذهب إلى عمله. وكان إبراهيم من الشباب المتحمسين الذين ذهبوا إلى القتال ليمحوا العار عن الوطن .

ومدت الأم يدها نحو ابنها المفضل ، فجاءها ثانية وجلس عند قدميها وقبل يديها فقالت :

— أرجوك يا ولدى ألا تقدم على عمل من أعمال الطيش ، وألا تتصرف تصرفاً تندم عليه حين لا ينفع الندم .

— لا تخافى يا والدتى ، فقد جاءتنا وعود بالمساعدة ... إننى حذر كالثعلب ، ولكن لن أثنى ركبتى للقوة الغاشمة ... إننى أقاتل عصابة السفاحين الذين انتهكوا حرمتنا وداسوا حريتنا ، فإن الواجب على هو أن أخدم بلادى وأبوى .

ثم قبل أمه وغادر المنزل مسرعاً ، ولو استطاعت لأوقفته ، لأن الخوف استولى عليها .

الفصل الخامس

لم يكن الجاسوس ٥٦٦ سوى قطان باشا المستوطن برشيد ، كان قطان باشا من أهل أرمنيا ، وعندما فقدت أرمنيا استقلالها حضر إلى مصر ، وتجنس بالجنسية المصرية واعتنق دين الإسلام ... ولكنه كان من أكبر المرابين فى المدينة فكان يخرج الأموال بفوائد فادحة حتى كرهه الناس ، ولذلك انعزل عنهم ، وعاش فى مزرعة فى الطرف الشرقى من البلدة ، وشيد لنفسه هناك قصراً كان يسكنه هو وابنته .

كانت تلك الفتاة المسكينة لا تخرج من القصر ، وقد فقدت عطف أمها منذ كانت فى السابعة من العمر ، وهى الآن فى الثامنة عشرة .

حدث مرة أن احتاج طاهر بك عمدة البلدة إلى نقود لكي يسدد ما عليه من الدين الذى كان غارقاً فيه إلى أذنيه ، فلم يجد أحداً يلتجيء إليه غير قطان باشا الذى عرض عليه المال بفائدة قليلة ، وعندما حان وقت الدفع لم يجد طاهر بك ما يدفعه ، فذهب إلى دائنه يستمهله فأعطاه مدة أسبوع يدفع بعدها ما عليه من الدين .

وردت على قطان باشا إشارة من الحملة ، أنه لا بد من وجود شخص فى منزل العمدة لكى يحضر لهم الأخبار والمؤامرات والخطط التى يعدها مراد باشا ، لأن كل هذه الأشياء فى عهدة إبراهيم ابن العمدة .

ودبر قطان باشا خطته ، إذ لا بد أن يستولى الإنجليز على مصر ، لكى تنال أرمنيا استقلالها على أيديهم . . . هكذا كان الاتفاق بين قطان باشا والإنجليز .

وحينما حان الوقت لدفع الدين الذى على طاهر بك، ذهب إلى قطان باشا ليستمهله فقال له قطان باشا :

ــ والله يا أخى إنى محتاج إلى المال ، ولذلك لا أستطيع إمهالك أكثر من ذلك ، وأملى أن تدفع دينك حتى لا أضطر إلى نزع ملكية الأرض وبيعها .

عند ذلك اصفر وجه طاهر بك وأخذ يرجو المرابى أن يمهله بعض الوقت ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد . وأخيراً انسابت الدموع من عينى الشيخ المهدم الذى وجد الفضيحة أمامه بسحبها الداكنة ، فقال له قطان باشا :

ــ إننى أقترح عليك اقتراحاً أنت فيه الرابح ، فإن قبلته كان بها وإلا فسأبيع الأرض بالمزاد اليوم أو غداً ، وأستولى على الدار وأخرجكم منها .

فظهر البشر على وجه الشيخ المهدم وقال :

ــ لا خيب الله رجائى فيك أيها الصديق العزيز ، ودام عزك . . .

أرجوك أن تسرد على ذلك الاقتراح . وهو مقبول بإذن الله تعالى . .
فقال المرابى :
– إذا رضيت أن تزوج ابنك من ابنتى – وهى كما تعلم على قدر كبير من الجمال – فإننى أرفع ما عليك من الدين والفائدة .

....

[وقف السيد الرئيس فى قصته
عند هذا الحد ، فأكملها المؤلف]

وانقضت لحظات من الصمت قطعها طاهر بك قائلا بصوت هدجته الدهشة : ماذا ؟ ... أزوج ابنتك ... أعنى ... ابنى من ابنتك ؟
– وأى غرابة فى ذلك ؟ ... أترانى لا أليق بمصاهرتك يا طاهر بك ؟
فأجاب طاهر بك وقد بدا عليه الارتباك : العفو يا باشا ، ولكنها المفاجأة ... أنت تذهلنى بما تسميه اقتراحاً و ...
فلم يدعه الأرمنى يكمل حديثه إذ بادر بمقاطعته قائلا : أفهم من هذا أننا قد اتفقنا . . .
فاستدرك طاهر بك بسرعة قائلا : لا شك أن مصاهرتك تشرفنى ... ولكن ...
ثم صمت الشيخ تاركاً لعينيه عبء التعبير عن حيرته . . . ولم تخذله فطنة الرجل ، فقد ارتسمت على وجهه المنتفخ ابتسامة عريضة وقال : إن حيرتك لا تدهشنى ، وبوسعى الآن بعد أن اتفقنا أن أوضح لك أسباب هذا الذى يبدو لك أمراً غير طبيعى . . .
وأطلق قطان باشا سعلة قصيرة جلا بها حنجرته ثم قال : عندما قدمت إلى مصر منذ أحد عشر عاماً مع ابنتى نورهان ، كنت قد خلفت وطنى ورائى وقد وطئه المستعمرون بسنابك خيولهم ونشروا فى ربوعه الموت

والدمار ، وسالت فوق أرضه دماء الأبرياء أنهاراً .

وغشيت ملامح الرجل غمامة من الحزن وسادت الغرفة برهة من الصمت لم يلبث الأرمنى أن قطعها بقوله : منذ أحد عشر عاماً ، أهلت التراب على جثة المرأة الوحيدة التى عرفت كيف تملأ حياتى بالهناء ، وتسعد شبابى بالحب ... وكان أحد جنود الأتراك قد طعنها عند اجتياحهم بلدتنا طعنة أودت بحياتها وسعادتى ...

وزفر الأرمنى وقد بدا الأسى على وجهه ، ثم تابع حديثه قائلا : لم أطق البقاء فى البلد الذى أصبح يذكرنى كل شىء فيه بزوجتى المسكينة وبأيام شبابى التى لن تعود ، فآثرت الرحيل ، وجئت إلى مصر واستقر بى المقام فى رشيد ... أحد عشر عاماً عشتها فى قصرى الكبير مع ابنتى نورهان المخلوق الوحيد الذى آنس وحدتى طوال هذه السنين ، والمخلوق الوحيد الذى أعيش من أجله ... إنى — كلما نظرت إليها — أشعر بطيف ذلك الإحساس الذى كان يغشانى فى تلك اللحظات التى كنت ألتقى فيها بأمها أيام خطبتنا ... وكنت كلما استبدت بى الوحدة وغلف اليأس نفسى ، وجدت فى الجلوس إليها والإنصات إلى صوتها الضاحك والتأمل فى بسمتها إشراقاً يضىء جوانب نفسى بالأمل ويبدد ما فيها من وحشة وقنوط . . . لم يعد فى قلبى مكان لغير ابنتى ، فنذرت وجودى لإسعادها مهما كلفنى ذلك ... إنك لا تستطيع أن تتصور كم كانت بسمتها الوضيئة تبهجنى فأشعر بأنى أملك الدنيا بأسرها وكم كان يشقينى عبوسها فأود لو أقتل نفسى إن كان فى ذلك ما يخفف عنها . . .

فقال طاهر بك مستنكراً : أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم !

وغالب قطان باشا ابتسامة ظافرة كادت تطفو على وجهه ثم واصل الحديث : وقد لاحظت منذ شهور أن شيئاً ما قد حدث ... شيئاً غير م بدت آثاره على ابنتى أول الأمر طفيفة لا تكاد ترى ، ولكنها

تحس ، ثم لم تلبث أن أخذت فى النمو والظهور ... فلم تعد تقبل على الطعام ، وهجرت معزفها ، ولزمت غرفتها لتنطرح على فراشها ساهمة بعينيها من خلال النافذة إلى الفضاء فى شرود صامت ، وأصابها هزال شديد ، وأصبحت لا أراها إلا شاردة الذهن ، مقطبة الجبين وفى عينها نظرة قانطة وكأنها فى محنة لا مفر منها ولا فكاك . . . وحاولت أن أعرف سرها ، فراغت منى دون أن تصارحنى بالحقيقة فلم أثقل عليها ، وراقبتها من طرف خفى فلم أصل إلى شىء . . . وكان طبيعياً بعد انقضاء أكثر من ثلاثة أشهر دون غذاء أو نوم كافيين أن يذبل شبابها وتخر صريعة الهزال والمرض ، فاستدعيت لها طبيباً كبيراً من القاهرة ، ثم آخر من الإسكندرية ، كلفانى الكثير ، ولكن الطب والدواء أخفقا فى أن يعيدا إلى المسكينة ما فقدته . . .

وسعل الباشا مرة أخرى ثم قال : وفى إحدى تلك الأمسيات الموحشة التى كانت الرياح تموء فيها من وراء النوافذ ، أصابنى أرق وصداع سهدانى الليل بطوله . . . كنت لا أسمع غير عويل الرياح الحزين خارج القصر فانقبضت نفسى . . . وظل الصوت القمىء يدوى ساعات طوالاً حتى وجدته فى النهاية يعول داخل رأسى ، وأحسست أنى موشك أن أفقد عقلى ، بل لعلنى فقدت عقلى فى تلك اللحظة ، فقد وجدت نفسى أريد أن أخرج إلى الظلام وأن أسب الرياح وأن أصرخ ثم ألقى بجسدى وآلامى وخواطرى فى . . . النيل . . . وكان كل ما حولى يدفعنى إلى ذلك دفعاً . . . ابنتى المحتضرة ، وذلك الصداع . . . وعويل الرياح . . . والوحدة . . . فنهضت من فراشى وتسللت لأهبط إلى مصيرى . . . وعند قمة السلم ، توقفت قدماى . . . وعز على أن أموت دون أن أتزود بنظرة أخيرة من ابنتى ، فتسللت إلى غرفتها ووقفت أمام فراشها ... كانت نائمة وحبات العرق منعقدة فوق جبينها ، فى حين كانت

أنفاسها تتردد فى ضعف وخفوت ... وانحدرت من عينى دمعتا أسف على شبابها التعس واستدرت لأنصرف ، ولكنى ما كدت أهم بالخطو نحو الباب حتى سمعت صوتها يتردد فى خفوت شديد ، فالتفت نحوها فوجدتها مغمضة العينين وانحنيت فوقها لأسمع همسها ظاناً أنها قد تكون ظمأى فأسقيها بيدى قبل أن أودع الحياة ، ولكننى وجدتها لا تزال مستغرقة فى النوم ، ولم ألبث أن سمعت غمغمة غير مفهومة تنبعث من بين شفتيها ، فأصخت سمعى ... وبعد لأى استطعت أن أتبين بعض ما أفلته النوم من سرها . . . كانت تهتف باسم رجل . . . كانت تناجيه فى حلمها . . . عندئذ أدركت علتها ودواءها . . . كانت التعسة تعتقد أننى سوف أغضب وأثور لو أننى علمت بسرها ، لذلك لم تجرؤ على مكاشفتى به . . . كان فتاها قد شغفها حباً . . . فكانت تناجيه بخيالها فى يقظتها وبروحها فى منامها ... لقد بكيت ياطاهر بك عندئذ ... لم أكن أدرى أكنت أبكى تأثراً من تلك اللوعة وذلك الحرمان اللذين كان قلب ابنتى ينوء بهما ؟ أم كان بكائى فرحاً بعثورى على مفتاح خلاصها من شقوتها ؟ بكيت كطفل صغير وارتفع صوت نشيجى فأيقظها من أحلامها . . . فأقسمت لها أن أزوجها ممن تحب مهما كلفنى الأمر من جهد أو مال . . . أقسمت أن أزوجها منه ولو رغم أنفه . . .

وتريث قطان باشا لحظة قبل أن يقول : ولهذا جئتك اليوم خاطباً لابنتى فتاها . . . إبراهيم . . . واعذرنى إن كنت قد خرجت عن حد اللياقة فى بدء حديثنا . . . أنت أب ويمكنك أن تقدر موقفى جيداً .

فقال طاهر بك كالحالم : طبعاً ، طبعاً . . .

وأطرق الثعلب العجوز برأسه فى انفعال مصطنع ثم التفت إلى طاهر بك وقال متعجباً : إن ما يدهشنى فى الأمر كله ، هو أن تقع ابنتى فى غرام فتى لم تره سوى مرة أو اثنتين عندما كنت تبعث به إلى قصرى فى

بعض ما بيننا من معاملات . فقال طاهر بك ، ولما يستطع التخلص من حيرته بعد : يا باشا ، أرجو أن يمن الله عليها بالشفاء وأن يهيئ خيراً ، و ... إن مصاهرتك لشرف كبير يعز على الكثيرين ... كل ما أرجوه هو أن تدع لى فرصة أعرض فيها الأمر على إبراهيم .

فنهض الأرمنى وقال وهو يتهيأ للانصراف : سوف أعود لمعرفة رأى إبراهيم ... غداً ...

الفصل السادس

همست النسمات الرطبة بقدوم الخريف فارتجفت صفحة الغدير الساكن واضطربت صورة السماء فوقها، وجفلت عينان كانتا ترقبان فيها عبور السحب الصغيرة البيضاء فى صمت وتأمل ... وهبطت يمامة على غصن شجرة جميز عتيقة وأخذت تتلفت حولها فى رعونة ثم خفقت بجناحيها وطارت محلقة نحو الشرق، فتبعتها العينان بنظرة هائمة حتى ابتلعها الفضاء اللانهائى . . . كان كل شىء يوحى بقلق مبهم . . . الأصيل بلونه الذى يثير فى نفسها الرهبة ، وذلك النباح الذى كان يطلقه كلب مذعور ويصل إلى سمعها من بعيد ، وعبير الزهور البرية الذى امتزج بالنسمات الرطبة التى بعثت إلى قلبها بخفقة غير مفهومة . . . وانحدرت النظرة الهائمة إلى الأرض متأملة ظلال الأشجار والنخيل وقد بالغت الشمس الموشكة أن تغرب فى إظهار طولها ، وتصورت العتمة المقبلة وهى تزحف فى بطء وغلبة فتلتهم النور المحتضر ، وتمحو الظلال الطويلة . . . وغشيتها وحشة أعادتها إلى ما كانت تفكر فيه منذ ساعتين وهى قابعة فوق الحجر الكبير الجاثم فوق حافة الغدير . . .

لقد انقضى اليوم كما انقضى الأمس ولم يحضر كعادته ، ترى ما السبب؟ . . . أهو مرض مفاجئ أم فتور فى عواطفه؟ . . لا ، لا . . . إنها تعرف محسناً جيداً ، فما من شىء فى الدنيا يستطيع أن يحول بينه وبين المجىء . . . حتى المرض ... ولكن . . . إنه برغم ذلك . . . لم يأت . وتذكرت لقاءهما الأخير ... أول أمس ... هنا ... لقد جلس إلى جوارها وأمسك بكفها ثم قال لها بصوت ينبض بالحب والأسى : متى تزول الغمة يا حبيبتى . . . متى؟ . . . إن الأيام تمر ببطء خانق وإن صبرى قد نفد من هذا الترقب الذى لا ينتهى ، فالإنجليز فى مخيمهم قابعون والمصريون من بعيد ينظرون ، فلا هؤلاء يهاجمون ، ولا هؤلاء يتحركون وكأنما هى مؤامرة لتأخير يوم زفافنا .

وضحكت من قوله فشاركها الضحك رغم حنقه فبدا كطفل كبير عزيز ، ثم رفع كفها فقبلها بشغف قبلة طويلة ارتعد لها كيانها . . . وانصرف . . . وتبعته خفقات قلبها . . . تماماً كما حدث عندما حضر مع أبيه ليطلبا يدها من أبيها . . . لقد ظلت طوال مكثهم تغافل من بالدار لتقترب من باب القاعة التى كان يتقرر بداخلها مصير قلبها ، عساها تلتقط كلمة تهدئ من روعها وتزيل عنها ذلك الشعور الطاغى بالقلق والتوقع ، كهذا . . . الذى يغشاها الآن . . . كانت تخشى أن يقول أبوها : لا . . . وما أكثر ما سمعته ينطق بهذه الكلمة بلا مبالاة . . . فقد كانت هوايته أن يرفض دائماً . . . وما أندر ما سمعته يقول : نعم . وابتسمت عندما تذكرت اللحظة التى فتح فيها باب القاعة . . . لقد خيل إليها وقتئذ أن قلبها قد كف عن الوجيب وتعلقت عيناها بوجوه الرجال الثلاثة لتقرأ فيها الحكم . . . وانقضت لحظات عصيبة لم تلبث الدماء بعدها أن عادت إلى التدفق من قلبها فى عنف وحشى . . . فقد أدركت أن أباها لم يمارس مع الزائرين العزيزين هوايته . . . واستبدت بها فرحة كادت تقذف بها من

مكمنها خلف الستار إلى أحضان طفلها الكبير العزيز ؛ ولكنها قاومت تلك الرغبة المجنونة بسرعة وحزم . . . وعندما انصرف محسن مع أبيه ، تبعته خفقات قلبها كما حدث أول أمس. . . وتنهدت وداد وهى لا تزال تحملق إلى خواطرها. . . من كان يصدق أن أبى. . . أحمد بك عاصم ، التركى المتعجرف ، الذى لا يكف عن الزهو بالمنصب الذى كان يشغله فى الدفتردارية أيام ولاية خسرو باشا ؛ أو أفندينا محمد خسرو باشا كما يحب أن يدعوه . . . من كان يصدق أن رجلا مثل هذا يسمح بزواجها من مصرى ينحدر من أصلاب الفلاحين مثل محسن ؟ . . .

وما إن وصلت بخواطرها عند هذا الحد حتى صك سمعها صوت أوراق الأشجار الجافة المتناثرة فى الطريق الضيق المؤدى إلى الغدير وهى تنسحق بصوت ضئيل تحت أقدام شخص يقترب ، فالتفتت خلفها ، فوقع بصرها على القادم – فهبت واقفة وهتفت فى رقة : محسن . . .

ولكن القادم ظل يقترب دون أن يتكلم ... وتبين للفتاة خطؤها ، فقالت بغضب امتزج بالاضطراب : أوه ... أنت مرة أخرى ؟

ولكن الرجل لم يجبها حتى وقف أمامها تماماً وعلى وجهه ابتسامة قميئة وقال : نعم ... أنا ... هل أدهشك حضورى أو أزعجك ؟

فقالت بجفاء لم تفلح فى إخفائه : ماذا تريد ؟

فقال مستنكراً وقد فارقت وجهه الابتسامة : ماذا أريد ؟ ... أهكذا يكون اللقاء بين أبناء العمومة يا وداد ؟... لم أكن أعلم أن الجحود يمكن أن يصل بأحد إلى حد إنكار رابطة الدم ، ونبذ أبناء العم !

فقالت بإصرار على الجفاء : لم أكن على موعد معك ليكون بيننا لقاء . . . ماذا تريد ؟

فعادت قماءة ابتسامته تعلو ملامحه من جديد وقال : ألا نجلس قليلا حتى نستطيع الحديث ؟

فأجابت بصبر نافد : لست على استعداد للإنصات إلى حديث أحد . . . انصرف ، أرجوك . . .

وأدارت له ظهرها ثم وقفت فى مكانها جامدة . . .

فقال حسن متوعداً بصوت كالفحيح : سوف أنصرف يا وداد ، ولكن بعد أن أتم ما جئت من أجله ، وبعد أن أسمعك رأيى فيك وفى ذلك الفلاح الوضيع الذى لوثت كرامة أسرتنا بزواجك منه . . . فاستدارت له وقد توقد وجهها بحمرة الغضب وقالت وهى ترتعد : خسئت يا بذىء . . . إن قلامة ظفر زوجى أثمن من عشرة رجال من صنفك . . . انصرف خير لك . . .

فرفع حاجبيه وقال متسائلا ببرود : وإلا ؟ . . .

فدقت الأرض بقدمها فى ضيق ثم صاحت : قلت لك انصرف وإلا استغثت . . .

فدفع حسن رأسه إلى الخلف وأطلق قهقهة ساخرة ، ثم كف فجأة عن الضحك وقال بوجه عابس : لو أنك واحدة من حور الجنان أو أميرة من آل عثمان ، لما سمحت لك بطردى . . . وقد فعلتها أنت يا فاجرة .

وتقدم نحوها ببطء فتراجعت مذعورة واصطدم ساقاها بالحجر الكبير فتهاوت عليه جالسة ، وقالت بصوت فيه خوف ومقت : انصرف عنى . . . ماذا تريد منى ؟ ... ابتعد ... فانحنى فوقها ومد يده وقبض على ذراعها بقوة وقال بحزم : لقد تلوثت دماؤك بالقطرات المصرية التى سرت إليك من أمك . وسوف أخلص الأسرة منها . . . سوف تأتين معى إلى طنطا حيث نعيش معاً بعيداً عن هذه البلدة التى شهدت فضيحة زواجك من هذا الفلاح الجبان . . .

فانتفضت بعنف وخلصت ذراعها من قبضته وانتصبت واقفة وقالت باحتقار : إنما الجبان من يستأسد أمام امرأة عزلاء ويسب رجلا فى

غيبته . . . عد إلى رشدك وانصرف . . . أما أنا فلن أكون لغير هذا الفلاح . . . زوجى . . . فصاح التركى قائلا بصوت يرتجف بالحماقة وهو يرفع يده ليهوى بها على وجهها : لقد نفد صبرى معك يا عاهـ . . .

وقبل أن تمس كفه وجهها ، امتدت يد قوية فأمسكت بمعصمه وجذبته بقوة جعلته يدور حول نفسه وقد توقف النعت البذىء الذى أراد أن يطلقه على طرف لسانه . . . ولم تلبث اليد القوية أن هبطت على صدغه بقوة ثم علبها ذلك الاحمرار الذى صبغ موضع اللطمة من وجهه فخفف من الصفاقة البادية عليه .

وهتفت الفتاة بجزع امتزج بفرحة مفاجئة : محسن . . .

وأجاب محسن بيده اليسرى على الجانب الآخر من وجه التركى الشاب الذى تقهقر إلى الخلف فتعثر فى حافة الحجر الكبير وسقط بظهره على الأرض وهو يغطى وجهه بكفيه ... وأسرع محسن فجثم فوق صدره وأمسك بأذنيه بقوة وجذبه منهما وقال بازدراء : أينا الوضيع يا أغا ؟ ... أنا سليل الذين غرسوا أصول الحضارة والعلم والفن والأخلاق أم أنتم وأبناء عمومتكم المماليك ؟ نحن أم أنتم يا سلعة النخاسين وبضاعة تجار الرقيق ؟ نحن أم أنتم يا من لا تراث لكم ولا مجد ؟ . . . أينا الجبان يا أغا ؟ . . . نحن أم أنتم ؟ . . . هل نحن جبناء لأننا تصدينا للإنجليز وقاتلناهم وقطعنا رؤوسهم وأنتم الشجعان الذين تواريتم فى جحوركم عندما سمعتم طلقة أول مدفع إنجليزى ؟ . . . أينا النذل يا وغد ؟ . . . نحن أم أنتم الذين انتهزتم فرصة انهماك الشعب فى صراعه مع الإنجليز فذهب بعضكم إلى كفر حليم والأميرية والقرى التى حولها فسلبوا الناس مواشيهم ونهبوا أموالهم وهتكوا أعراض النساء والعذارى والغلمان ثم جروهم إلى سوق مسكة حيث باعوهم رقيقاً كما بيعوا ؟... أينا القذر يا قذر . . . أنا أم أنت وقد جئت تبغى الاعتداء على حرمة زواج شرعه الله ؟ ... أليست صفاقة أن

تعيرنى بشرفى وكرمى ؟ ... انهض ، وحذار أن أراك فى رشيد كلها ... حذار يا نذل . . .

وانتصب محسن واقفاً فقفزت وداد إلى جانبه تلوذ به من ذعرها ونهض حسن من رقدته الذليلة وهو ينفض عن ثيابه تراب الأرض وعيناه تفيضان بسيل من المقت الدفين ، ثم استدار فى أناة وابتعد متمهلا ... وظل محسن يرقبه وهو يعتصر قبضته ، ولكن وداد أسرعت فألقت بنفسها على صدره وهمست بنعومة قائلة :

ـ لقد كان فى حاجة إلى هذا الدرس منذ زمن طويل . . .

فنظر محسن إلى وجهها بعينين زائغتين وقال بصوت متهدج : لقد كان درساً لى بقدر ما كان له ... لقد فاخرته بأمجاد قومى التى كنت لا أكترث بها منذ قليل ... كنت أسخر من المجاهدين الذين حملوا السلاح وذهبوا للقاء الإنجليز ... كنت أفضل أن أحمل كأساً أصبها فى جوفى ، وأن أماجن أصدقائى وسمارى ، ثم أعود إلى الدار لأندس فى الفراش الدافئ الوثير . . . وبعد كل هذا أفاخر بما لم أبذل فيه شيئاً من جهد أو نقطة من عرق أو دم ... لقد فتح هذا الوغد التركى عينى ...

فتظاهرت بالغضب وقالت : كفاك سباً فى الأتراك يا محسن ، أنسيت أننى ابنة أحدهم ؟

ـ لا تنسى أيضاً أن المرحومة والدتك مصرية ... فلاحة ... يجب أن تحمدى الله وتحمديها على هذا ...

فضحكت وقالت بدلال : لهذا أحب فلاحاً . . .

وفى تلك اللحظة ، دوى طلق نارى مزق الهدوء المخيم ، ثم تقلصت أصابع الفتاة حول ذراعى محسن ، ولم تلبث أن تهاوت متكومة عند قدميه . فأطلق محسن صيحة جزع وهتف باسمها ثم انحنى فوقها ، فشاهد ثقباً فى ظهرها تسيل منه الدماء . . . كان نبضها قد توقف وجمدت

ضحكتها الأخيرة على ملامحها . . .

وجن جنون محسن ، فنهض منطلقاً فى إثر غريمه كعاصفة مدمرة ...
وكان القاتل قد وجد أنه إذا توقف ليضع رصاصة أخرى فى غدارته ليقضى
بها على محسن فسوف يتيح له الوقت الكافى للحاق به ، فآثر الفرار تاركاً
لجريمته عبء الانتقام من غريمه، مطمئناً إلى أن قلبه لن يلبث أن يكتوى
بلهيب الحرمان الحزين . . . وطفق يجرى بكل ما أوتيت قدماه من خفة
على الطريق الضيق الذى يخترق المزرعة الكبيرة ... ولم يلبث أن سمع
صوت أقدام تلاحقه فى سرعة ،وكلما مضت لحظة ازداد صوت الأقدام
قرباً ، فانحرف يساراً ليلوذ بمجموعة كثيفة من النخيل وتابع الجرى ولكن
صوت الأقدام ظل يتبعه ، فالتفت خلفه ليتبين مدى اقتراب مطارده
منه ثم ... أحس بشىء يصطدم بأذنه بقوة هائلة ... ودار رأسه وغشيت
عينيه قتامة كثيفة ودار حول نفسه ثم سقط منبطحاً على وجهه ... ولكنه لم
يلبث أن تحامل على نفسه فنهض وهو يسب بالتركية تلك النخلة التى
مال جذعها فى تقوس غير مألوف ، كأنها تآمرت مع غريمه فنبتت هكذا
عمداً لكى يصطدم بها رأسه فيسقط فريسة سهلة بين براثن ذلك الفلاح
المتوحش . . . وانطلق يعدو من جديد ولكن بعد أن كان محسن قد
اقترب منه بقدر مكنه من أن يمد ذراعه ويقبض على عنقه ... وسقط
كلاهما على الأرض فى صراع مميت ، وبعد لأى تمكن محسن من أن
يمسك برأس التركى فى تشبث ... وعلى جذع نخلة ظمآنة ، ظل محسن
يدق رأس التركى بقوة حاقدة وكل ما فيه يهتف بالمقت الدفين وظل
يدق ... ويدق ... ويدق ... حتى رأى السائل القاتم يصبغ الجذع
الجاف ويروى الأرض فوق الجذور !

الفصل السابع

تدلى مصباح صغير وسط الخيمة ملقياً ضوءه الشاحب على رجلين يجلسان حول مائدة صغيرة ... كانا شاباً لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، يرتدى ثياباً تنم بساطتها وانسجامها عن شخصية تتسم بالصراحة والجرأة والإخلاص ، وكهلا ذا لحية مدببة ووجه هضيم وسترة عسكرية تزينها شرط من القصب الذهبى ، ويتدلى من وسطه سيف طويل ...

كان الكهل قد أطرق برأسه مصغياً إلى كلمات الشاب الذى لم يلبث أن توقف عن الحديث هنيهة استرسل بعدها يقول :

— وقد كلفنى على بك السلانكلى أن أبلغ سعادتكم ضرورة الاستمرار فى مناوشة الإنجليز دون انقطاع لكى نشغلهم عن القيام بهجوم على رشيد فى الوقت الحالى ، إلى أن تتم إقامة المتاريس ويصل إلينا المزيد من الجند والسلاح .

— وهل أتى أحمد بك الخازندار بنبأ عن موعد وصول الجيش ؟

— لقد أبدى الخازندار بك حيرته للسيد حسن كريت لتأخر الوالى عن إرسال جيشه ، غير أنه يرجح أن التأخير راجع لانشغاله بمحاربة المماليك فى أسيوط .

— والسلاح ؟

— لم نجد لدى الأهالى سوى اثنتين وخمسين بندقية وسبع عشرة غدارة : وبعض السيوف الصدئة ... أما ثمن البارود فقد استطعنا أن نجمع من الأهالى ثلاثة وثلاثين كيساً أكملها السيد حسن إلى أربعين من حر ماله فأرسلناها مع خمسة رجال من ذوى الخبرة بأنواع البارود ليشتروا بها أكبر قدر ممكن منه . . .

فهز القائد التركى رأسه بأسف عميق ثم قال بازدراء : كنت أتوقع

ذلك . . . لقد جرد قومى الشعب من السلاح واحتكروه لأنفسهم ليعجز الناس عن مقاومتهم كلما حلا لهم أن يسلبوه شيئاً ، كما جردوا السواحل من المدافع وتركوا الحصون والأبراج يبليها الإهمال والموج والزمن لكى تعجز مصر عن دفع أسطولهم كلما جاء بقطيع من أفاقى طوروس وأوباش الدردنيل فى ثياب الجند ليزفوا إلى مقعد الولاية قراقوزاً جديداً من رجال الباب العالى . . . إننى خجل من مصر ... خجل من ربى . . . لقد أذلوا أهل هذا البلد وأذاقوه كئوساً مترعة من الشقاء ... لقد أعمتهم مطامع الدنيا فركبوا غرائزهم وتسفلوا بآدميتهم ونسوا أن هذا الشعب يدين بما يدينون به ويؤمن بالله الذى يدعون أنهم له عابدون . . .

وضرب مراد باشا المائدة بقبضة يده فى حنق ثم استطرد يقول : إننى خجل لهم — وقد آليت على نفسى أن أقف مع هذا الشعب ضد كل طامع أو خائن حتى الموت . . . إن إيمانى بالله أضخم من تركيتى ، وراحة ضميرى أثمن من قوميتى . . .

ووجد إبراهيم صدى يتردد فى نفسه لكل كلمة نطق بها قائده الذى آثر أن يحمل السلاح ويقاتل مع الفلاحين بعد أن كان قد تقاعد قبل سفره لأداء فريضة الحج والذى كان قد تفرغ للعناية بشئون مزرعته الكبيرة . كان جيران مراد باشا من المصريين يعدونه واحداً منهم ويعجبون كيف أمكن تركيا ، تلك البلاد الظالم أهلها ، أن تنجب رجلا فى مثل طيبة وإيمان ذلك الرجل الذى كانت رقة قلبه وسخاء كفه سببين جعلا الكثيرين من أهل القرى المحيطة بمزرعته يرتابون أول الأمر فى أنه كان ذات يوم قائداً فى الجيش التركى يحارب ويقاتل ويطعن ويدمر ويقود جنداً . ورغم ذلك، فقد كان هناك شىء واحد لا يختلف عليه اثنان من جيرانه ، هو أنه رجل يستحق تلك الدعوات الحمّة التى كانت تنطلق صباح مساء نحو السماء حاملة إلى الله ابتهالات الفلاحين أن يطيل بقاءه

وأن يديم عليه الصحة والعافية . . . ذلك أن جواره لهم كان بدء عهد من الطمأنينة والراحة لم يكونوا قد ذاقوا لهما طعماً من قبل ، فلم يكن جند الوالى أو أية جماعة من أفاقى المماليك يجرؤون على الاقتراب منهم لسلبهم ماشيتهم أو اختطاف نسائهم فقد كان ما يتمتع به مراد باشا من صيت كبير فى تأديب أمثال هؤلاء بمثابة الدمية التى ينصبونها فى حقولهم لترويع الطيور النهمة وردها عن التهام حبات عرقهم من سنابل القمح أو عناقيد العنب . . .

وأراد إبراهيم أن يقول شيئاً يخفف به عن الرجل الذى خلع ثوب تركيته الملوث فبدت إنسانيته كريمة شامخة ، فقال برقة :

— سيدى ... إن الخير والشر فى كل مكان فبين الأتراك الخير والشرير ومثلهم فى ذلك مثل أى قومية أخرى ... هاك على بك السلانكلى مثلا ، إنه تركى أيضاً ولكنه بطل شهم ، لم يتوان لحظة واحدة عن قتال الإنجليز وتوزيع السلاح على أهالى رشيد . . .

فقال مراد باشا بارتياب : قد تكون شهامة على السلانكلى وحميته هى التى دفعته إلى قتال الإنجليز ، وقد يكون السبب هو خشيته من غضب سلطان تركيا الذى عينه فى منصبه ومن إهدار سمعته كجندى — قد يكون هذا الدافع أو ذاك هو الذى جعله يدافع عن المدينة ، وقد يكون كلاهما ، إلا أننى أؤكد أنه لو لم يكن الشعب قد قام بدوره فى المعركة السابقة لما أمكن على السلانكلى أو غيره من القادة أن ينتصر ، إذ كيف تنتصر قوة قوامها سبعمائة من الجند المترهلين الذين يحملون أسلحة قديمة على جيش مكون من ألفى جندى مدربين خير تدريب ، تسيطر عليهم روح الغزو ، ويتسلحون بأحدث الأسلحة ؟ ... لا ... إنه الشعب الذى انتصر فى المعركة الماضية ، وهو وحده الذى سوف ينتصر فى المعركة المقبلة ... أما على بك السلانكلى أو مراد باشا أو أى رجل آخر ، فإنك تغمط الشعب

حقه إن نسبت إلى أيهم فضل الكفاح ... لم يسد أحد جميلا إلى مصر ، ولا تصدق غير هذا . . .

ووجد إبراهيم نفسه فى حرج غامر ، فقد كان فضل الرجل لا ينكر وإخلاصه لقضية حرية مصر لا يعوزه دليل ، ولم يجد إبراهيم حجة يخفض بها أصبع الاتهام الذى صوبه مراد باشا نحو عشيرته من الأتراك ، بل لقد كره أن يجد نفسه يتلمس لهم عذراً يجامل بذكره الرجل الوحيد الذى يكن له الاحترام دونهم جميعاً ، فقد كان يمقتهم ... ويمقت جشعهم ، وغباءهم ، وحيوانيتهم ، وكفرهم بكل شىء ، وبكل معنى إلهى أو إنسانى . . . بل لقد كره أن يكون مراد باشا واحداً منهم. . . وأخيراً ، وجد إبراهيم أن من الأفضل أن يغير موضوع الحديث فقال : إن الذى يحيرنى من أمر هؤلاء الإنجليز أنهم يعبئون الجيوش ويبعثون بالأساطيل ويجشمون أنفسهم أهوال القتال ونفقات الحرب من أجل وعد بذلوه لذلك الرجل الذى أراد أن يعيد زمام الحكم إلى المماليك وأشباه الرجال ، غير مبالين بما يجره هذا عليهم أو على غيرهم من خراب ومشاكل . . . وإن ما يزيد فى حيرتى تمسكهم بدعوة رجل لم يكن يمثل سوى شرذمة من المماليك ، وهم لا يشعرون بذرة من الخجل عندما يعلنون أنهم إنما جاءوا بدعوة من محمد الألفى ، الذى مات ... دعوة رجل ميت لم يفوضه الشعب فى يوم من الأيام للتحدث باسمه . . .

— اسمع يا بنى ... إن دعوة الألفى بك لهم ليست سوى الدرع التى يخفون وراءها السبب الحقيقى لغزو مصر ، فليس من المعقول أن يضحى الإنجليز أو غير الإنجليز بالآلاف من أبنائهم من أجل نزع السلطة من محمد على وتسليمها للألفى وأعوان الألفى ... لا يا بنى ... إن الإنجليز ليسوا من البلاهة بحيث يريقون دماءهم لمثل هذا السبب الهزيل ، وإنما هناك شىء آخر . . . السبب الحقيقى . . .

وبعد لحظة من الصمت استطرد مراد باشا يقول :

ـ إن النفوذ الفرنسي قد تغلغل فى مصر بدرجة أصبحت تهدد مصالح الإنجليز فى الشرق كله بالضياع ، ومصر كما تعلم هى طريق تجارتها الوحيد من الهند وإليها ، والإنجليز بغير الهند وتجارتها وخيراتها يتضورون جوعاً ، فإنهم يعيشون على امتصاص دماء شعوب مستعمراتهم لا سيما الهند ... وفرنسا تعرف هذا جيداً ... وهى لهذا تكافح لبسط نفوذها على الشرق عامة ومصر خاصة لتقطع على الإنجليز طريق تجارتهم ، فهما برغم ذلك الصلح الذى عقد بينهما منذ خمسة أعوام أصدقاء ألداء ... وقد أفزع الإنجليز أن يجدوا أنه لم يكد ينقضى عام واحد على تنصيب محمد على واليا على مصر حتى أصبح مسيو دروفتى القنصل الفرنسي صديقاً حميماً لمحمد على ومستشاره السياسى والعسكرى ، وكان طبيعياً أن ينتهز دروفتى الفرصة فيستخدم نفوذه لخدمة مصالح بلاده التى تتعارض مع مصلحة الإنجليز... وقد وجد الإنجليز أنهم قد أخفقوا فى محاولتهم السابقة فى إعادة السلطة إلى المماليك بالدس لمحمد على والضغط على حكومة القسطنطينية ، ولعلك لم تنس بعد قطع الأسطول التركى التى قدمت إلى الإسكندرية فى العام الماضى حاملة إلينا موسى باشا فى مظاهرة بحرية ضخمة لتنصيبه واليا على مصر من قبل السلطان ، ولولا أن حال الشعب دون إتمام تلك المحاولة لكان حاكم هذا القطر الآن صنيعة من صنائع هؤلاء القراصنة تعاونه جماعة من مماليك الألفى يكونون بمثابة ستار ضخم تختفى خلفه أطماع الإنجليز ومآربهم . . . وطالما تربص الإنجليز للفوز بمصر غنيمة سهلة الابتلاع يضيفونها إلى معدة جشعهم التى لم تتخمها الهند وغير الهند من مستعمرات... وطال تربصهم ... ومات الألفى وهو يدهش لتباطئهم فى الحضور لنجدته كما خيل إليه ، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة . . الحجة الواهية التى يتذرعون بها للوثوب على مصر ... وأخيراً واتتهم ... فقد اعتدت

تركيا على الروسيا حليفة الإنجليز فوجد هؤلاء الحجة المنشودة ... فكان أسطولهم وكانت حملتهم هذه . . .

كان إبراهيم ينظر إلى شفتى القائد وكأنما يريد أن يرى كلماته كما يسمعها ، فقد كانت كل كلمة ترفع عن بصيرته غشاوة كانت تحجب عنه الحقائق الضخمة ... وأحس إبراهيم بسيل من الفهم ينساب إلى عقله دفعة واحدة ، ولم يلبث أن تفاعل بما كان يعتمل فى نفسه من حقد على الغزاة ذوى الوجوه الحمر فغشيته موجة مفاجئة من الحماسة — فقال لمراد باشا فى نزق :

— لم لا نشن عليهم هجوماً ليلياً مباغتا نعبئ له كل قوتنا ؟

فقال القائد الكهل بهدوء : إن الهجوم عليهم غير مأمون العاقبة مطلقاً ، فلديهم نحو ثمانمائة جندى تدربوا على ألوان القتال من هجوم ودفاع ومطاردة تدريباً كاملا ، وهم يتحصنون خلف متاريس تطل من فوقها فوهات المدافع والبنادق الحديثة ورجالنا لا يزيدون عن ثلثمائة مقاتل نعتمد على إيمانهم وحماستهم أكثر مما نعتمد على تدريبهم أو براعتهم فى القتال ... هذا فضلا عن أن القيام بهجوم على الإنجليز يستلزم وجود قوة مدربة تبلغ ضعف قوتهم ومدفعيه لدك متاريسهم وإسكات مدفعيتهم لتمهد لهجوم الرجال ... كل هذا يعوزنا لكى نستطيع سحقهم ونتقاضى النصر ثمناً لدماء رجالنا ... لا يا إبراهيم ... لا تدع الحماسة تعميك عن الحذر واستعمال العقل ...

وسكت مراد باشا مفكراً لحظات وأصابعه تعبث بشعيرات لحيته ، ثم استرسل يقول : ليس أمامنا غير الانتظار ومواصلة استدارجهم هم للهجوم علينا بمناوشتهم وإقلاق راحتهم حتى تثور أعصابهم فيضطرون للخروج إلينا من خلف تحصيناتهم وعندئذ ... ولمعت فى عينى مراد باشا نظرة صارمة وهو يكمل حديثه بصوت متمهل : عندئذ ... سوف تتكل

أمهات وتترمل زوجات كثيرات ... هناك ، في إنجلترا ...

وفجأة ، سمع الرجلان جلبة من بعيد استرعت انتباههما فأصاخا السمع ، وانقضت لحظات كانت الضجة خلالها تقترب من الخيمة بسرعة ، وكلما ازدادت قرباً ، ازدادت خفوتاً ، حتى إذا ما أصبح القادمون أمام الخيمة ، كانت الجلبة قد تبددت ، فوثب الرجلان في تحفز واتجه القائد نحو باب الخيمة ويده على مقبض سيفه ، وقبل أن يصل إليه ، شاهد جمعاً من الرجال ممسكين برجل طويل القامة أسمر اللون ، تتدلى من عنقه عصابة من قماش داكن ... وكان الضوء الخافت الذى يلقيه المصباح الصغير إلى خارج الخيمة في تخاذل لا يكاد يتميز عن الظلمة الغامرة كثيراً فأضفى على وجه الرجل الطويل الأسمر قناعاً من الظلمة الشاحبة ، فبدا كمارد رهيب . . .

وتأمل مراد باشا الجلبة الصامتة على مضض وقد أحاطت بذلك العملاق الغريب ، ومضت برهة ارتفع بعدها صوته بالسؤال قائلا : من هذا؟

وقبل أن يتمكن أحد من الرجال من الإجابة ، ارتفع صوت من وراء القائد يقول بهدوء :

— أرجو أن يأمر سيدى القائد بإطلاق سراح هذا الرجل ... إنه أحد رجالى ...

فالتفت مراد باشا إلى إبراهيم بدهشة ثم ردد طرفه بين الجند والعملاق ، وعاد فنظر إلى إبراهيم وسأله وهو يشير بأصبعه نحو الأسير قائلا بارتياب :

— أواثق أنت أن ...

فقاطعه إبراهيم مؤكداً بقوله : تمام الثقة يا سيدى ... ولابد أن أمراً هاماً دفعه إلى البحث عنى حتى علم بمكانى فجشم نفسه مشقة الحضور إلى هنا مغامراً بحياته بالاقتراب من معسكر تتحفز فوهات بنادق رجاله لإطلاق الموت على كل شبح يلوح لهم فى الظلام ...

. . . بدا التردد على مراد باشا لحظة ، لم يلبث بعدها أن أشار للرجال أن يدعوا أسيرهم . . . وما إن انصرف الرجال ، حتى دخل ثلاثتهم إلى الخيمة ، ونظر مراد باشا إلى إبراهيم متسائلا ، فقال هذا باسماً :

— هذا سلامة... الرجل الذى يعتمد عليه أبى فى إدارة شئون مزرعتنا الصغيرة وأستاذى الذى علمنى كيف أسوس الخيل وأصوب إلى الهدف وأسابق أسماك النهر ، والرجل الذى جعل من كل هجوم إنجليزى علينا رحلة فاشلة تنتهى عند حافة معسكرنا والذى بث فى نفوس جند العدو الذعر حتى إنهم أطلقوا عليه اسم ... الشيطان المقنع ...

وبهت مراد باشا عندما فوجئ بحقيقة شخصية العملاق الذى كان منتصباً أمامه ينظر إلى الأرض حياء من الثناء الذى يكيله له ربيبه إبراهيم . . . وتأمل القائد وجهه الذى لفحته الشمس وملامحه الصارمة وعينيه المتلألئتين ببريق عجيب يشع بالفطنة والجسارة ، وتلك الشعيرات القليلة البيضاء التى لم تستطع أن تخفى حقيقة سنه ، فقد كان يقترب من نهاية العقد الرابع أو تجاوزه بعام أو اثنين .

وسأل مراد باشا نفسه فى دهشة : إذن فهذا هو الأسطورة التى حيره أمرها ، والتى كثيراً ما ساورته الشكوك فى أن يكون لها وجود حقيقى ... إذن ، فالعملاق المقنع ليس شبحاً تبعث به قوة مجهولة لإنذارهم كلما تأزمت الأمور أو كادت ، كما كان يعتقد الرجال ، وكما أوشك هو أن يعتقد ... وتذكر الساعات الطوال التى أرهق خلالها عقله فى تعليل ما حدث ذات ليلة . . ليلة الهجوم الإنجليزى الأخير . ذلك الظل المبهم الذى رآه وهو نصف نائم لما يفق بعد من نومه ... وعندما تمالك حواسه تماماً وجد ذلك التحذير القصير مكتوباً على خيمته بخط كبير ... إنه لا يزال يذكر الكلمات ... نعم ... إنها ... « هجوم ليلى ، فإن ستمائة رجل يزحفون عليكم وبينكم وبينهم الآن أقل من نصف ميل» ... تماماً ...

كانت هذه كلماته...لا ريب أنه هو... بل إنه قطعاً هو... ها هو ذا اللثام قد انزلق عن وجهه فتدلى من عنقه ... وهذه القامة المديدة إنها قامة ذلك الرجل الذى حاول أن يلحق به ليلة الهجوم فوجده قد اختفى وكأن الأرض قد ابتلعته . . .

ومد مراد باشا يده إلى العملاق مصافحاً ، وشد على يده بحرارة ، وهو يقول بصوت تهدج بالتأثر : دعنى أصافحك يا سيد سلامة ، إن ما أديته لوطنك يدل على بطولة يتغنى بها الرجال وينسجون حولها قصصاً لا أجدها كافية لتمجيد فدائيتك ، وإن كنت ما زلت غارقاً فى حيرتى من تقنعك ودأبك على ستر شخصيتك حتى عن رجل مثلى كان يعتقد أنه قد أصبح يتمتع بثقة إخوانه المصريين . . .

ونظر القائد الكهل إلى إبراهيم معاتباً ، ففتح إبراهيم فمه ليقول شيئاً ، ولكن صوت سلامة سبقه إلى القول فى عمق نابض بالرجولة : ليس فى الأمر أية بطولة يا سيدى وكل ما فى الأمر أننى أؤدى واجبى كما يؤديه أى رجل فى هذا المعسكر ولكن بطريقة مختلفة ... إن البطولة الحقيقية يا سيدى القائد إنما تتجلى فى أن يقف رجل مثلك إلى جانب شعبنا متجرداً من كل معنى يخالف الإيمان بالله وحق الإنسانية أينما كانت فى حياة حرة ، مترفعاً عن الركون إلى الراحة التى ما كان أحد ليلومك على الركون إليها ... إن هذا هو المجد حقاً ...

وسارع إبراهيم إلى انتشال قائده من دوامة ثناء العملاق ... فقال معتذراً : أرجو صفح سيدى القائد ، لقد اضطرنى سلامة إلى وعده بألا أفشى سره لأحد حتى زوجته ... لقد حارب سلامة الفرنسيين ولمس بنفسه خيانة بعض الجنود الأتراك لكفاح الشعب فكانوا يتصلون بالفرنسيين ليشوا بالثوار المصريين... وقد تخير سلامة لنفسه مهمة لا يسهل على غيره القيام بها ، فآثر أن يؤديها فى تكتم شديد ، وبالغ فى حذره وحيطته

حتى إنه كان لا يدخل هذا المخيم لتنبيه الرجال إلى هجمات الإنجليز الصامتة إلا ملثماً ، وكثيراً ما جادلته فى هذا فكان دائماً يهزمنى بحجة أن من المحتمل أن يكون قد اندس بين رجالنا أحد المستوطنين الذين أجادوا لهجتنا دون أن يؤمنوا بقضيتنا ممن يسعون إلى الاشتراك فى القتال طمعاً فى الأسلاب والغنائم فيعلم حقيقة أمرى ويبوح بسرى للإنجليز نظير دراهم معدودة . . . ولست أفعل ذلك خشية أن يقتلنى الإنجليز أو جواسيسهم ولكننى أفضل ألا أموت قبل أن أقتل منهم عدداً يبترد به قلبي العامر بلهيب الحقد عليهم . . .

فهتف القائد قائلا بمرارة تضوعت فى نفسه خزياً لخيانة الأتراك ؛ والله لقد أصاب سلامة ... ولم يغب عن فطنة إبراهيم ما بدا فى صوته من ألم ، فعض على شفته السفلى نادماً واكتشف أنه قد لكز نفس قائده دون قصد فى مكان يضج بالألم ، فأخذ يعتصر ذهنه بحثاً عن شىء يمحو به طعنات كلماته التي قالها فى صراحة نزقة ، وبعد لأى استغرق لحظات خالها دهراً قال إبراهيم :

ـ لقد أسعدنا جميعاً ، سلامة ... وأنا والجميع أن تقدم سعادتكم خبرتكم الطويلة بالحروب وأساليب القتال وسيفكم الذى سجل الانتصارات الكثيرة، للدفاع عن حريتنا ، فسارعنا إلى القتال تحت قيادتكم وقلوبنا مطمئنة تماماً إلى أننا سوف ننتصر . . .

فبدت على وجه مراد باشا بسمة حزينة وهز رأسه فى صمت قطعه إبراهيم بالعودة إلى الحديث عن سلامة ليباعد بين القائد وخواطره التى يعرفها :

ـ وبهذه المناسبة ، لقد أثبت سلامة أنه خير عين لنا على الإنجليز، فهو يكمن لهم عن قرب ، ويرصد حركاتهم وسكناتهم مستتراً بالظلمة وجذوع الشجر وعيدان الأرز ... وقد أصبحت تسليته المفضلة اصطياد

دورياتهم .. ونادراً ما تعود إحداها بغير حصان قد انكفأ فوقه راكبه و...

وتنبه إبراهيم إلى أن سلامة يتململ فى وقفته فتذكر أنه لم يسأله عن سبب قدومه فبادره بالسؤال عما حدث.. وبأسلوب سريع يختصر الأحداث الكبيرة فى ألفاظ قليلة ، قال سلامة :

ـ كنت أراقب الجانب الغربى لمعسكر الإنجليز فشاهدت وصول قوات إنجليزية هائلة تتكون من نحو أربعة آلاف جندى ومئات من العربات الكبيرة والمدافع الضخمة ...

حملق الرجلان فى وجه سلامة وأذهلهما النبأ بضع ثوان ، صاح بعدها مراد باشا قائلا :

ـ متى ؟ . . متى وصلت هذه القوات ؟

ـ منذ ساعتين تقريباً ...

فوثب مراد باشا من مقعده واقفاً واختطف منظاره واندفع إلى خارج الخيمة وصوب المنظار نحو معسكرات العدو . . . ومضت دقائق خفض بعدها القائد منظاره متمهلا وقد استغرقه تفكير تصحبه دهشة مذهلة ، وأخيراً غمغم قائلا بصوت به رنين الأسف :

ـ لقد تضخم معسكرهم وامتد نحو الشمال وكثفت فيه الخيام، فلم أعد أشاهد النجوم من بينها ... صدقت يا سلامة ...

وترك ذراعيه تسقط إلى جانبه ... ثم عاد إلى الخيمة يتبعه الرجلان فى صمت . . وقطع مراد باشا السكون المخيم بقوله :

ـ لقد تغير الموقف تماماً الآن ... إذا كان الرقم الذى ذكره لنا سلامة قريباً من الحقيقة ، فإن أمامنا الآن نحو خمسة آلاف جندى ومئات المدافع ، وهذا معناه أن الإنجليز يعتزمون اجتياح شمال الدلتا بأسرها ... إن كل ما نستطيعه الآن حيال هذه القوة الهائلة أن نتخذ موقف الدفاع عن أنفسنا إلى أن تصلنا القوات من القاهرة ...

ثم التفت مراد باشا إلى سلامة وقال : إننى أتوقع أن يزحف الإنجليز نحو رشيد ، وأريدك أن تتجه على الفور إلى الشمال لتراقب تحركاتهم من هناك ... نبئنى بأى شىء يثير ريبتك ... هل لديك حصان قوى ؟

— نعم يا سيدى القائد ...

— اذهب يا سلامة ... الله معك ...

وانصرف الفلاح الأسمر ، فالتفت القائد إلى إبراهيم وقال :

— وأنت يا إبراهيم ... لست أجد داعياً لبقائك هنا حتى الفجر ... عد إلى رشيد بغير إبطاء ، ونبه السلانكلى والأهالى إلى القوة التى استقدمها العدو من الإسكندرية ، وليرابط الجميع خلف المتاريس وأسلحتهم فى أيديهم ، ثم اذهب إلى السيد حسن كريت وبلغه أنى أشهد الله على أنى برىء من كل تركى لا يحمل سلاحه لقتال القراصنة . وأنى سأحارب مع الرجال حتى آخر رمق ... سوف أقاتل أعداء مصر وأعداء الله حتى أسقط جثة هامدة ، عسى أن أكفر بموتى عن بعض ما اقترفه قومى من آثام ... عد سريعاً وبلغه ... واطلب منه أن يبعث برسول يستعجل القاهرة إرسال ال ... نجدة ... قبل فوات الأوان ...

واندفع إبراهيم بجواده إلى جوف الليل والرياح التى كانت تحمل إليه رائحة البحر البعيد ، وأخذت عيناه تبحثان عن ذلك النجم المتألق فى اصفرار ، الذى كثيراً ما تعلق به بصره عندما كان ينبطح فى الليالى الحارة فوق سطح دارهم فى رشيد ، ولكن الأحداث التى حفلت بها الأيام الأخيرة لم تدع عينيه تواصلان البحث عن النجم الصديق ، فتدفقت الخواطر إلى رأسه غزيرة متشابكة وهبطت به من السماء إلى حقائق الأرض. كان صوت سلامة لا يزال يطن فى رأسه ... أربعة آلاف جندى ومئات العربات الكبيرة ... ومدافع ضخمة ... أربعة آلاف آخرون ... مزيد من لصوص البحر لإذلال رشيد والتنكيل بأهلها ... لقد أصبحوا طلاب

ثأر بعد ما ذبح الرشايدة منهم المئات ...

ترى ، ما الذى أخر جيش الوالى ؟ ... أمات رسول السلانكلى فى الطريق ؟ أم أن الجيش قادم ومن خلفه قافلة من العربات المحملة بالسلاح والبارود ؟... ما أحوجنا إلى السلاح والبارود !... إن أحمد الخازندار يؤكد أن الرسول قد بلغ محمد على الرسالة ... وأنه حضر إلى رشيد على رأس جنوده الأربعمائة بموجب أمر أصدره إليه الوالى ليحارب الإنجليز ... هذا السفاك ... ألا يستحى من نهب القرى الآمنة فى المنوفية وهو فى طريقه إلى رشيد ؟ ... خنزير ... نعم ... خنزير نجس . إنه لا يخجل من أن يطلق على نفسه اسم بونابارته الصغير ... أتراك مجانين ! !

ولاحت على مبعدة أشباح نخيلات متناثرة كانت علامته على أنه قد أوشك أن يقطع نصف الطريق بين الحماد ورشيد ... وعادت خواطره تهمس إليه ... لن تمضى ساعة حتى أكون قد أنهيت رسالة مراد باشا إلى السلانكلى ، والسيد كريت ... سوف يوفد السلانكلى رسولا يستعجل النجدة ... النجدة ! ! ... نعم ... هكذا قال مراد باشا ... لقد انقلب ميزان الأمور ... كنا بحاجة إلى مدد صغير نستعين به على سحق البقية الباقية من الإنجليز الفارين من هزيمتهم فى رشيد . . . أما الآن ، فنحتاج إلى نجدة ... اللهم عونك ... هيه ! ! ... لقد تجاوزت النخيل ... بقى أمامى نصف الطريق ... من يدرى ... لعل محمد على آت ... لعله فى منتصف الطريق ... لو أن الأمر كذلك لوصل بعد ... كم ؟ ... يومين ؟... ربما ثلاثة ... وهل ينام القراصنة عنا ثلاثة أيام ؟ ... لا أظن ... ولكن ... ليكن ... ليت جيش الوالى فى منتصف الطريق ...

ولكن إبراهيم جواده يستحثه على الإسراع ، وخيل إليه أن خواطره

تركض فى رأسه صغيرة متعجلة كوقع حوافر الجواد ... ووجد نفسه يفكر فيما سيفعله عندما يصل إلى البلدة ... وهمست خواطره إليه ... سوف أوقظه ، وأطلب منه أن يبعث برسالة أخرى إلى الوالى بالقاهرة ... سوف أطلب أن يبعث بها الليلة ... نعم ... الليلة ، مع ... من ؟ ! أريد رجلا له جلد على السفر المتواصل . . . يجب أن تصل الرسالة فى أقرب وقت ، ولكن مع من ؟ ... لم لا أذهب أنا ؟... نعم ... لم لا ؟ سأبلغها بنفسى إلى محمد على، وأشرح له المحنة وأطلب إليه أن يستقيظ وأن يفعل شيئاً ... سأمر قبل سفرى على دار السيد حسن وأطلب إليه أن يبلغ أبى فى الصباح خبر سفرى ... سوف تقلق أمى لغيابى كعادتها ... لا حيلة لى فى هذا ... ترى ... هل ستقلق نورهان ؟ ... هل ستفتقدنى فى غيابى ؟ ... لست واثقاً ... لو أنها كشفت لى عما يحيط بها من غموض ! ... ذلك الشىء الذى لا أراه ولكنى أحسه ... هذه القضبان النفسية التى تحول بينى وبينها ! ! ... ترى أى شىء كانت تقوله لأبيها بالأرمنية عندما دخلت عليهما أول الأمس ! ... أتراها كانت تشكونى إليه ؟ ! ... لابد أنها كانت تشكونى إليه . وإلا فما معنى تلك البسمة الصفراء التى حاول أبوها أن يخفى بها ارتباكه ؟ ... ولكن ... ما حيلتى ؟ ! إنها هى التى تخيرت لنفسها هذا المصير ... ففيم التذمر إذن ؟ ! ولم هذه النظرة المترفعة فى عينيها ... النظرة الباردة القاسية ! ... وهذه الأنفة ! ... إننى لا أفهمها ... ولا وقت لدى لفهمها . ولكن ما الذى يدفعها إلى البقاء يقظى فى انتظار عودتى كلما تأخرت؟... إن المسكينة تحبنى ... نعم ... هكذا قال أبوها لأبى ، ثم ... ألم تسترد عافيتها ونضارتها فى أيام قلائل عندما اطمأنت إلى أنها ستزف إلى ؟ لقد سمع قصتها من أبيه كاملة ، وأدهشه منها كل ذلك الحب دون أن تراه سوى مرتين أو ثلاث مرات ! ... شىء عجيب ، ولكنه ... حدث ! !

وسأله خاطر ملح : كيف رضيت بالزواج منها؟... وفى مثل هذه الأيام التى لا يستطيع أى رجل أن يفكر فى غير البارود والمدافع؟... هل تزوجتها لأنقذ أبى من ورطته ؟ ... أو لعله ثراؤها أو أنه حسنها الرقيق ولثغتها الشهية وبشرتها الناصعة ؟ ... ربما لكل هذه الأسباب مجتمعة ! ... مسكينة هذه الفتاة ... لا ريب أنها تظن بى الظنون لتجنبى إياها منذ أن أصبحت ... زوجتى ... لقد خيبت آمالها ولكن عليها أن تدرك ما نحن فيه الآن ... هذه المحنة ... خمسة آلاف جندى ... عربات كثيرة ... ليس ذنبى أننى لم أقربها ... ثم إننى أعود بجسد مفتت ... وهذه القضبان الخفية التى تفصل بيننا ... والنظرة القاسية فى عينيها ... زوجة متذمرة ... هل هذا احتقار ؟! ... فلتحمل تبعة إصرار أبيها على الزواج فى وقت غير ملائم ... هل كان ذلك الأحمق بحاجة إلى أن يلجأ إلى التهديد لكى يزوج غادة كهذه من رجل مثلى ؟ ذلك المجنون الدميم ... كيف استطاع هذا الرجل ذو الرأس الضخم المفرطح والأنف المتورم أن ينجب هذه الزنبقة الرقيقة ؟ ! هذه الشفافية ! ... إنها فتاة لا بأس بها...سوف يعتاد أحدنا الآخر بعد أن تستقر الأمور... سوف أعمل على أن أزيل القسوة من نظرتها وأن أكون أهلا لحبها ... سأدخرها ... لقد نذرت ... نعم ... سأدخرها ... فاكهة ليوم النصر... وسوف ننجب أطفالا ! ! ... نعم ! لا شك !...ترى كيف يبدو أطفالى ؟ فى لون القمح مثلى ؟ أم فى لونها هى ... بياض متورد ؟ ... سوف أسمى أول أبنائى... مراد ... وعندما ينمو سآتى به إلى الحماد ، وأحكى له قصتنا مع الإنجليز ... قصة النصر ... إن شاء الله ... ألن ينتهى هذا الطريق ؟ ... وهذه الرياح ... ما أقسى لذعها ! ... ولذع الجوع ... إننى جوعان ... مكدود ... يومان بلا نوم ، وصوم منذ الصباح ! ... ما أجمل النوم فى فراش وثير ... وهذا الجوع اللعين ، ما آلمه !... سأمر

على الدار لأتبلغ ببعض الطعام و ... ما هذا ؟ ! وجذب إبراهيم عنان جواده وانحرف به لائذاً بالظلام الحالك خلف شجرة على يمين الطريق... وظل ساكناً يحملق فى الظلام من مكمنه حتى اقترب صوت ركض وتبين شبح رجل على ظهر جواد ينهب الطريق نحو الحماد وكأنما تطارده الشياطين ، فأخرج إبراهيم غدارته وصاح وهو يصوبها نحوه قائلا :

ــ قف ... من هذا ؟

ورأى إبراهيم الجواد يجفل براكبه وينتصب على ساقيه الخلفيتين ، وتلفت الرجل حوله باحثاً عن مصدر النداء ، فصاح إبراهيم من جديد :

ــ حذار من الحركة وإلا أطلقت عليك النار ... من أنت ؟

فقال القادم وهو ينظر نحو مصدر الصوت : مسافر إلى الحماد لمقاتلة الإنجليز .

ودهش إبراهيم ، فقد كان صوت الرجل شبيهاً بصوت أخيه ، فأراد أن يستوثق من ذلك فقال :

ــ من أنت ؟ ... اسمك ؟

ــ محسن ... محسن طاهر .

فهتف إبراهيم فى عجب وهو يعيد غدارته إلى قرابها ، محسن ! ! ... تقدم ... إننى إبراهيم ... أخوك ...

وبرز بجواده من خلف الشجرة إلى الطريق مقترباً من أخيه وهو يحاول أن يتفحص وجهه فى الظلام ثم قال بوجل :

ــ ماذا حدث ؟ ... هل حدث شىء لأبى ؟ أو ...

فقاطعه محسن قائلا بسرعة : كلا ... إنهما بخير ... هدئ من روعك .

ــ لم يحدث شىء ؟ أواثق أنت ؟ ... صارحنى يا محسن ، ماذا حدث ؟ لماذا أنت ذاهب إلى الحماد ؟

ــ كنت فى طريقى إليك بعد أن نقبت عنك فى كل مكان فى رشيد ، وفى المزرعة ، والكفور المجاورة ، فلم أجدك ، عندئذ أدركت أنك لابد أن تكون قد ذهبت إلى الحماد فجئت فى أثرك ...

فقال إبراهيم بصبر نافد : لماذا ؟ ... تكلم يا رجل !! ...

فأجاب محسن بأسى : لقد ماتت وداد يا إبراهيم ... قتلها التركى الحقود ... حسن عاصم ، ابن عمها ... قتلها أمامى يا إبراهيم ... فصاح إبراهيم فى ذهول : وداد ؟ ... ماتت ؟ ... قتلها ؟ ... أين هو ؟ أين ؟

ــ إنه ممدد فى غابة النخيل التى تتوسط مزرعة أبيها ... جثة هامدة ... لقد قتلته بيدى هاتين ... بودى لو أستطيع قتله ثانية ...

واندفع الفتى يقص على أخيه ما حدث وختم حديثه قائلا : لقد بددت النكبة الغشاوة عن عينى ... أدركت أننا لن نستطيع أن نحيا حياتنا ونسعد بها مع من نحب ما دام فى مصر أتراك يتعالون ويسيطرون أو إنجليز يهدرون حريتنا ويتحكمون فى حياتنا ... إننى نادم على ما فاتنى من جهاد ... لن يهدأ بالى حتى أحارب الإنجليز مع المحاربين ، وعندما نفرغ منهم ، فلن أصبر لحظة واحدة عن محاربة الأتراك وتطهير بلادنا منهم ...

وفى حسرة بين رغبته فى مواساة أخيه وعجلته لإنجاز مهمته ، قال إبراهيم لأخيه : أكمل رحلتك إلى الحماد ، واطلب مقابلة مراد باشا ... عرفه بنفسك وبلغه أننى سوف أبلغ رسالته إلى القاهرة بنفسى ...

وظل إبراهيم يرقب أخاه من فوق حصانه وقد جمدت الدهشة خواطره حتى تلاشى صوت حوافر جواده ، ووجد نفسه يهتف فيما يشبه الذهول : من كان يصدق أن هذا الماجن المدلل ينقلب إلى رجل ؟!

ثم استدار بحصانه نحو رشيد وتابع السير مواجهاً الرياح .

الفصل الثامن

خلف مشربية تطل من الطابق الثانى على درب ضيق طويل ، جلست حسناء ذات جدائل فاحمة طويلة وبشرة ناصعة تكاد تضىء ما حولها ، تنصت إلى السكون المخيم على الحى ، وقد أسندت رأسها إلى كفها ، وأرسلت طرفها متأملة المصابيح الزيتية الصغيرة المعلقة فى تلك الألواح الخشبية المتفككة التى تظلل أبواب الحوانيت وهى تتأرجح مع هبات الريح فى استسلام ...

كانت ترى فى تلك المصابيح المتراقصة فى قيودها صورة حقيقية لحياتها ... وكرت بذاكرتها إلى ثلاثة أسابيع مضت ، يوم جلس إليها أبوها يثرثر بكلام كثير عن واجب الابنة البارة نحو أبيها ، وحق الأب على ابنته من طاعة ... وعن أرمنيا ... وذلك الزوج الذى كان عليها أن تتزوجه من أجل أرمنيا ...

لقد كان أبوها هو كل عالمها الصغير الذى تعرفه ، وتعرف أنه لم يتوان يوماً واحداً عن عمل أى شىء يعوضها به عما فقدته من حنان الأم التى لا تذكر وجهها ... وقد عودت أباها أن تغمره بثقتها وحبها ثمناً لذلك الحب والحدب ... وما كانت لتعصى له أمراً أو تتردد فى إتيان ما يطلب منها عن حب ورغبة ... ولقد أخبرها أبوها فى رقة فياضة عن الدور الذى يراد منها أن تلعبه أمام زوج فرضته مصلحة يرى أبوها أنها تستحق التضحية ، وتوجب الغض عن الميول والعواطف الفردية ، فآمنت بعقلها ... ولكن شيئاً ما ... شيئاً عربيداً غامضاً كان قد تسلل إلى قلبها قبل ذلك بأعوام ، جعل قلبها يكفر بما يقول أبوها ... لقد كانت تستشعر حنيناً غامضاً إلى لون مجهول من الحب ، فيه لذة وانتشاء ... حب يختلف عن

ذلك الذى تحسه نحو أبيها ومربيتها ... حب يثير أحلامها ويخفق له قلبها.. وكان يدفعها إلى الترنم بأغنية أرمنية كانت تسمع أباها يرددها وهى طفلة صغيرة على لسان راع فى وديان أرمنيا يناجى حبيبته البعيدة وراء الجبل ويناشدها أن تطل عنيه عندما يمر أمام دارها بعد غيبته الطويلة... وأن تلقى بمنديلها ليحفظه فوق قلبه فيستشعر من وجوده القوة التى تعينه على خطبتها من أبيها. كان إيمانها بوجود هذا اللون من الحب، بلا منطق ولا تجربة، وبأن مذاقه يختلف عن هذا الحب الذى ألفته ...

كانت كفأر وقع فى مصيدة لا فكاك له منها، فعندما كاشفها أبوها برغبته، تصورت نفسها زوجة لأحد هؤلاء الرجال الذين تمر بهم فى عربتها المغلقة ... مجعد الوجه، له لحية ضخمة وصوت أجش، وأسنان صفراء كريهة، فسرت فى روحها رعدة مزلزلة ... كما تصورت ما يمكن أن يصيب أباها من خيبة أمل لا يخطر بباله أن تصيبه من ابنته العزيزة الوحيدة لو أنها رفضت ما يعرضه عليها ... وبعد صراع نفسى عنيف ... أومأت برأسها المنكسة موافقة فى استسلام وألم ...

وأعلن أبوها اسم الرجل... إبراهيم... فحدقت بعينيها دهشة وعجباً... وتذكرت ذلك الفتى الخجول الذى جاء إلى قصر أبيها ذات يوم يدعوه إلى أبيه، فالتقى بها على مقربة من سلم الشرفة المؤدى إلى الحديقة ... كان واحداً من الذكور القلائل الذين وطئت أقدامهم ذلك القصر المنعزل، وكان... والحق يقال أوفرهم وسامة وشباباً، ورقة... مثل ابن خالتها بوغوص...

وتذكرت كيف بعث لقاؤهما العابر فى ذلك اليوم المزيد من عربدة ذلك الشىء الوليد الغامض فى صدرها... وتمنت يومها لو يعود الأسمر الوسيم للسؤال عن أبيها من جديد ... وكيف أن الأيام مضت ، ولم يعد ... وأخذت ذكرى اللقاء تتلاشى حتى طواها النسيان ... وبرزت مكانها الذكرى الدائمة الباهتة ... ذكرى ابن خالتها الذى يعيش فى أزمير ،

يتجر فى الجواهر وينمى ثروته حتى صار عميد تجار الأحجار الكريمة فى ذلك الميناء البعيد ... حيث يسكن قصراً كبيراً شيده فوق الصخور ... ويطل من عليائه على البحر فى كبرياء ... إنها تذكر المرة الوحيدة التى جاء فيها إلى مصر ونزل ضيفاً على أبيها فى قصرهم ، ووجدت فيه رجلا يكبرها ببضعة عشر عاماً غير أنه كاد متورد الوجه ، لامع الشعر ، حديثه رقيق ، ونظراته تنفذ إلى ذات نفسها بلا عناء ... وكان مفهوماً للجميع أنها لن تصبح زوجة لرجل غيره ... وقد أكد ذلك ، تلك الضغطة اللينة التى بثها كفه لكفها فى الخميلة النائية خلف القصر ، والتى سرت فى دمائها لهيباً طالما سهدها وأغرقها فى خضم من أحلام العذارى ، بذلك اللون المجهول من الحب ...

ولقد تساءلت عندما انصرف عنها أبوها ليعلن قبولها الزواج من ابن العمدة عما سيقوله ابن الخالة العزيز عندما يعلم أنها قد خانت العهد الصامت ، وتزوجت من غيره ... رحماك يا إلهى ! ...

ومضى يومان ، وأصبحت زوجة لإبراهيم ... ووجدت نفسها تقارن بينه وبين ابن خالتها وهى أقرب إلى الرضوخ إلى ما آل إليه مصيرها ... إنه ليس فى ثرائه ، ولا يسكن مثله قصراً شامخاً ... وليس فى استطاعته أن ينثر تحت قدميها الجوهر الغالى ، إلا أنه على كل حال ، ليس دميم الخلقة ذا لحية كثيفة أو أسنان كريهة ... وهو فوق هذا لم يبلغ من العمر ما بلغ بوغوص الذى تجاوز الثلاثين بأعوام كثيرة ...

ووجدت فى عنفوان شبابه وقرب خلاصها من وحدتها فى القصر الموحش ، ومن برودة ذلك الحرمان الممل عزاء لها عن ذلك الحلم الرابض فوق الصخور المطل من عليائه على زرقة مياه أزمير ...

وأخيراً ... انصرف الجمع الصغير الذى شهد عقد قرانهما ... وأغلق عليهما الباب ... باب هذه الغرفة ... وهدأت الضجة ... ووقفت

هى فى منتصف الغرفة ... هناك تلهث فى توقع رهيب امتزج بلهفة متوسلة، تنظر إلى الفراش فتجفل وتلتفت نحو الباب فتتخطاه بعينيها . . .

لم تكن تعرف ما ينبغى أن تفعله العروس بعد أن يغلق الباب ... بعد ذلك الزفاف الصامت الغريب ... هل تظل واقفة . . . أو تجلس على حافة الفراش . . .

لقد نظرت من بين أهدابها إلى ذلك الذى أصبح زوجها ثم أغمضت عينيها، ووقفت تنتظر فى غيبوبة واعية أن تلفح أنفاسه الهادئة وجهها، وأن تظل تقترب وتقترب حتى تصير لهباً ينفث فى شفتيها ما يرتجف له بدنها بما لا يقال ... وطال الترقب ... واشتدت اللهفة ففتحت عينيها وقد بددت الدهشة نشوتها ... فماذا وجدت ؟ !

لقد كان يجلس هناك ! . . . على الأريكة . . . ووجدته ينظر إليها بعجب وكأنها دمية خشبية غريبة الهيئة ! ! ولما التقت عيونهما ابتسم فى ارتباك فابتسمت فى حنق ولاح لها أن فى عينيه شيئاً يريد أن يقوله فأمسكت البسمة على وجهها مشجعة ... وبعد أن كادت أنفاسها تزهق سمعته يقول فى حرج بالغ : اذهبى إلى الفراش يانورهان واستريحى ... فإن مهمة ما تضطرنى إلى الخروج ...

— الخروج ؟... الليلة ؟ !

— نعم ... وسأعود فى الصباح .

فنظرت حولها فى حيرة وقالت بصوت مرتجف : تتركنى هنا وحدى ؟... إننى أخشى الظلام .

— تخافين فى بيتك ؟ ... أنت لست فى الدار وحدك ، فالبيت ملىء بالناس ... أمى ... وأبى ، وأخى والخادم ... ولديك نفيسة خادمتك ... أتحبين أن أنادى لك نفيسه ؟ . . .

— كلا ، كلا . . . وصمتت برهة ثم قالت فى تردد ودهشة :

ــ ولكن الليلة ... ليلة عرسنا ... هل هي عادة أن يترك الرجل عروسه ليلة الزفاف ؟...

فنهض زوجها من مكانه واقترب منها وقال مبتسماً وهو يضع يده على كتفها فارتجفت وقال : كلا ... إن عاداتنا ليست من الحمق بحيث تبيح ذلك ... !ولا أن أمراً هاماً كنا ... أعنى كنت أعد له منذ أسابيع قد حان ميعاد تنفيذه الليلة لما تركتك لحظة واحدة ...

ــ ألا يحتمل ما وراءك التأجيل حتى الصباح ؟

فقال بأسف : لا أستطيع يا نورهان ... ولكني أعدك أن أكون إلى جوارك قبل أن تستيقظي . . .

وانصرف ... دون أن يقبلها ... وتبعته بعينيها وهو يبتعد فى الدرب الضيق الطويل حتى ابتلعه الظلام ... وانخرطت فى نهنهة باكية ...

وتتابعت الأيام والليالى...لم يعد إبراهيم خلالها إلى البيت سوى أربع مرات ... أربع مرات خلال ثلاثة أسابيع طوال ... كان يعود إليها ورائحة العرق تنبعث من ثيابه المغبرة ، فيرتمى على الفراش صريع الإرهاق والجوع إلى النوم بلا كلمة ، سوى تحية يلقيها كمن يلقى بعبء ثقيل أمضه حمله ... ثم ... شخير طويل ... يبدد ما بناه خيالها من أحلام مثيرة ورى مرتقب ...

ومنذ ثمانية أيام قامت إلى مرآتها فتجملت وتعطرت وعقدت جدائلها الطويلة الفاحمة على هيئة تاج مرتفع ، كذلك الذى يزين رأس الحسناء المرسومة فى اللوحة الزيتية المعلقة فى القاعة الكبرى بقصر أبيها . . . ثم ارتدت من أجله غلالة وردية هفهافة من الحرير الهندى الشفاف ، وانطرحت على الفراش بإغراء ، تاركة لحسنها معاتبة زوجها عند قدومه والهمس فى أعصابه : هيت لك . . . ثم جرفتها الأحلام من جديد فاستشعرت منها لذة متوهجة . . . وتخيلت زوجها وهو يغلق الباب بهدوء

كعادته ، ثم . . . يستدير نحو الفراش فيراها . . . فيقبل بعينيه جسدها اللدن ، الذى تشى بأسراره الناصعة الغلالة الوردية المثيرة ، وعندئذ ... يقترب منها ثم ... ينقض عليها فيطويها بين ذراعيه ويسحق بدنها الرخو فى أحضانه القوية . . .

وقبل أن ينتصف الليل . . . عاد إبراهيم . . . وأغلق الباب بهدوء كعادته . . . وأوقد الشموع الثلاث ، ثم استدار نحو الفراش فأمعنت فى التناوم . . . وسرت فى أوصالها رجفة خفيفة عندما تكهنت بهبوط يديه من جسدها ، واستشعرت فى تلك المواضع دفئاً متزايداً . . . وانقضت اللحظات . . . بطيئة . . . غبية . . . فارتعدت أهدابها فى صبر نافد ونظرت إلى زوجها فى ثورة جبانة . . . ورأته قد جلس على الأريكة وبين يديه أوراق شرع فى قراءتها على ضوء الشموع . . . الأبله البارد . . . لشدما تمقت هذا الرجل . . . ولشدما تتمنى لو تحطم رأسه وتمزق قلبه الذى لا ينبض بعاطفة ما . . . أليست جميلة ؟ ! . . . أهى من الدمامة بحيث ينفر منها هذا الفلاح المغرور ؟!! أليست تفضل هذه الكائنات اللاتى يسرن فى الطرقات وقد وشت ملاءاتهن السوداء الكئيبة بترهلهن المضحك ، وكأنهن خفافيش بشرية سمينة ؟ ! . . . إن هؤلاء النسوة أزواجاً . . . ذكوراً . . . يجدن فيهن شيئاً يدفعهم إلى أحضانهن فى المساء . . . ألا يجد هذا المخلوق بعض هذا الشىء فى ؟ ! . . . إنه لم يقبلنى مرة واحدة . . . واحدة فقط . . . إننى بالنسبة له . . . لست سوى دمية غريبة لا تثير فيه أكثر من نظرة بلهاء ، يذهب بعدها فيرتمى على تلك الأريكة اللعينة أو يخرج إلى تلك المهمة التى تتجدد كل مساء . . . أما أننى امرأة من لحم ودم ، فهذا شىء لم يعلم به بعد ! . . . آه من هذا الغباء ! . . . هذا اللهيب ! . . . لن يكون الجحيم أسوأ من هذا الإهمال . . . هذا

الإذلال . . . والسهد ، والنظر إلى هذا الدرب الضيق الكريه إلى ما بعد منتصف كل ليلة . . . والقلق والحرمان حتى كل صباح . . . وتلك البسمات المقيتة التى يرشقنى بها أهله طوال كل يوم . . . هذا الشقاء . . . يجب أن ينتهى . . . عشرون يوماً أو تزيد ، بلياليها الطويلة ، وأنا أرسف فى قيود هذا الزواج . . . متأرجحة بين اليأس والأمل ، ثم اليأس من جديد . . . كهذى المصابيح المتأرجحة فى استسلام أمام هبات الريح ! . . .

وأقنعت نفسها بأن زوجها يستحق ما يدبره له أبوها . . . أبوها الذى ألقى بها فى هذا الجحيم . . . لقد أفاقت من كابوس مشاعرها فوجدت نفسها قد باحت له بكل شىء . . . كل شىء !!! فربت أبوها على يدها فى حنان وهون عليها قائلا بالأرمنية : لن يدوم هذا الحال يا نورهان . . . سوف نرحل إلى أزمير عندما نصل إلى بغيتنا . . . وسوف تجدين بوغوص فى الانتظار . . . وسوف تنسين هذا الرجل الكئيب . . . ولكن عليك أن تجعلى يوم خلاصك من هذا الشقاء قريباً . . . افتحى عينيك وأصغى بسمعك بحذر شديد . . . تقربى إليه . . . واعملى على كسب ثقته بسرعة حتى يمكنك استدراجه إلى الحديث عن المهام التى توكل إليه دون أن توجهى إليه سؤالا مباشراً . . . لقد أوضحت لك كل شىء أكثر من مرة . . . وتذكرى أنك تقومين بأعظم دور يمكن أن تؤديه فتاة . . . الحرية لبلادك وبلاد أجدادك . . . والمجد والسلطان لأبيك . . . والمال والسعادة والحب . . . لك . . .

وبعد ما كان التردد والفتور فى تنفيذ رغبة أبيها يساورانها كلما أقدمت على ما يراد منها . . . وجدت فى الخيانة سبيل الخلاص الوحيد الذى سوف يباعد بينها وبين هذا البلد الذى لن تذكره إلا وذكرت معه صنوف الحرمان التى تذوقتها خلال إقامتها فيه . . .

الحرمان من حب الأم وحنانها و. . . حب الزوج وتدليله . . .

وكأنما استجابت الأقدار لأمانيها فى الخلاص ، فقد عاد إبراهيم فى مساء اليوم الذى زارها فيه أبوها ، متأخراً كعادته ... مرهقاً ، جائعاً . . . وسقط كثوب فارغ فوق الأريكة وطلب منها وهو يتثاءب أن تعد له طعاماً ؛ ففعلت وعندما عادت بالطعام . . . كان قد غلبه النعاس وارتفع غطيطه . . . فحاولت أن توقظه ليأكل ، أو ليكف عن غطيطه الذى كادت نغمته الرتيبة تحطم أعصابها ، دون جدوى . . . فلما يئست من إيقاظه تركته محنقة واندست فى فراشها وأسلمت نفسها للأفكار الحانقة...

وفى الصباح ؛ حضر رجل يرتدى قفطاناً أسود وعمامة خضراء . فاستقبله طاهر بك بالتحية والتبجيل ، وبعد ما احتسيا القهوة ، أرسل طاهر بك فى طلب إبراهيم الذى كان لا يزال نائماً ، فأيقظته فانتبه من نومه وتلفت حوله ورآها ، فقام من رقدته وهتف فى دهشة : أنا هنا ؟!

وكأنما كان يستنكر على نفسه أن يعود إلى بيته لينام !! . . .

وأنبأته نورهان بالزائر ذى العمامة الخضراء ؛ فهتف فى حيوية من استيقظ من ساعات : السيد حسن كريت . . . لابد أن شيئاً ما قد حدث . . .

وهبط إبراهيم لمقابلة الزائر دون أن يغتسل أو يتذوق طعاماً . . .

واشتمت نورهان رائحة أحداث كبيرة تدور حولها ، ودفعها الحنق والفضول إلى التسلل إلى كوة صغيرة فى الردهة الخارجية تطل على الجالسين فى المنظرة الكبيرة ؛ ولكنها ما إن وصلت إليها حتى سمعت حفيف ثياب حماتها وهى تقترب من مكانها ، ففزت فى خفة إلى غرفتها فى اللحظة الأخيرة . . . وعندما هبطت أمه إلى المطبخ لتشرف على إعداد الغداء عادت إلى الكوة وأصاخت السمع ، وكان إبراهيم يقول :

ـــ والعدو بقواته الهائلة يستطيع أن يسحق قوتنا الصغيرة التى يعوزها

السلاح والبارود ما لم تحدث المعجزة وتصل النجدة من القاهرة . . .
إننا فى حرب يا سيد حسن وفى الحرب لا يمكن أن يخدع المرء نفسه . . .
لقد قال مراد باشا إننا نعتمد على إيمان رجالنا وحماستهم أكثر مما نعتمد
على تسليحهم ، وإن ما جمعته من أسلحة وذخائر طوال الأربعة
الأسابيع الماضية لا يجدى فتيلا أمام أربعة آلاف جندى كاملى التسليح
والتدريب تعضدهم مئات المدافع الضخمة . . . ويبدو أن الوالى لا يقدر
خطورة الموقف حق التقدير فلم يمدنا بأكثر من تلك القوة الصغيرة التى
يقودها أحمد الخازندار ... وحتى هذه القوة من الجند المرتزقة لم تتورع
عن سلب قرى المنوفية ونهب أهليها ، وكأنها تتقاضى ثمن القتال الذى
سوف تخوضه مقدماً . . . إن النصر لن يتم على أيدى هؤلاء المرتزقة
وقد آن لنا أن نعتمد على أنفسنا . . . فقال الرجل ذو العمامة الخضراء :
وماذا يرى مراد باشا ؟

فقال إبراهيم : إن مراد باشا لا يخفى قلقه من ضعف موقفنا وقلة
عددنا . . . وقد عزم على أن يلتزم جانب الدفاع إلى أن تصلنا النجدة
من القاهرة . . .

وصمت إبراهيم برهة قال بعدها بصوت ينغمه الأسف : لقد
كلفنى بالأمس أن أبلغك وعلى بك السلانكى بأمر الإمدادات الإنجليزية
الكبيرة لكى تعملوا على تدعيم تحصينات المدينة ولتكتبوا إلى
القاهرة لتسارع إلينا بالنجدة اللازمة ، قبل فوات الأوان . . . لقد
عرجت على الدار لأتبلغ بشىء من الطعام ، ولكن غلبنى النوم . . .
وكنت أزمع أن أذهب بنفسى إلى القاهرة بعد إبلاغكما هذه الأنباء . . .

فربت السيد حسن كريت على ركبة إبراهيم وقال : هون عليك
يا إبراهيم . . . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا
شيئاً وهو شر لكم . . . إن مكانك هنا يا رجل . . . فى الميدان . . .

لدينا عشرات بل مئات يستطيعون أداء الرسالة بسرعة وأمانة . . . والآن هيا بنا إلى السلانكلى لنخبره بالمدد الإنجليزى ونستكتبه رسالة لمحمد على . . . أما أنت فعليك بتنظيم جهود الأهالى وتوزيعهم على المتاريس والإشراف على حفر الخنادق . . .

وانفضت الجلسة ، وانصرف الرجال لإتمام تدبيرهم . . .

وجاء قطان باشا فى اليوم التالى زائراً ، يتبعه غلامان يحملان الهدايا إلى دار العمدة . . . لم يكن بالدار سوى النساء ، والخادم يوسف . . . فقادته ابنته إلى غرفة منعزلة ، وأفضت إليه بالأرمنية بكل ما سمعت من أسرار وتدابير . فأمرها أبوها أن تكون على أهبة الاستعداد للهرب معه فى أية لحظة إلى الإسكندرية . . . ثم قال وهو يداعب وجنتها : ومن هناك ، سأبعث بك على ظهر سفينة إلى أزمير ، وسوف ألحق بك بعد ذلك . . . بعد ما يفى الإنجليز بالوعد . . .

ثم علت وجهه ابتسامة خبيثة وهو يستطرد قائلا : وعندئذ . . . ستتزوج الحسناء نورهان من بوغوص . . .

بعد أن انصرف الأرمنى . . . تمددت نورهان فى فراشها واستسلمت لهدهدة الأحلام الناعمة . . . أزمير . . . بوغوص . . . ابن خالتى العزيز . . . سيقدم لى مع كل إفطار جوهرة . . . ومع قبلة المساء هدية . . . ما أحلى ضغطة يده . . . وما أبهى أن أكون سيدة قصر متكبر يطل على المياه الزرقاء العميقة . . .

الفصل التاسع

نحى الجنرال فريزر الخريطة الكبيرة جانباً والتفت إلى القائد الذى كان يجلس فى مواجهته وقد ألقى إليه سمعه باهتمام ، ثم قال :

ـ لقد وصلت فى الوقت المناسب يا جنرال ستيوارت ، وقد آن الأوان لكى ننتهى من هذه المهمة التى كاد أن يطول عليها الأمد ويحل علينا سخط صاحب الجلالة البريطانية.

فقال ستيوارت بلهجة الواثق : لن تمضى أيام قلائل حتى نكون قد غسلنا أيدينا من هذه العملية الصغيرة ، وتكون قواتنا قد بدأت الزحف نحو القاهرة .

ـ إن هذا ما أتوقعه من البطل الذى أدب العصاة فى البنغال ودعم هيبة التاج البريطانى فقد قررت إعفاء الجنرال ويكوب من أعباء القيادة لأن إصابته فى المعركة الأولى أصبحت تعوقه عن الاستمرار فى أداء واجبه على الوجه الذى يكفل لنا النصر وسوف أصطحبه هو والسير ولنجتن معى إلى الإسكندرية على رأس بقية قواته التى نجت من تلك الـ ... الـ ... مذبحة التى فقدنا فيها أكثر من نصف جنودنا . . . إننى أسند إليك القيادة وأنا مطمئن تماماً إلى أنك سوف تحقق انتصارات ترفع الروح المعنوية التى انهارت بين جنودنا ، وتمحو العار الذى لحق بعلم بريطانيا ...

وتوقف الجنرال فريزر عن الحديث ونظر إلى طرف المائدة حيث يجلس رجل ذو رأس ضخم مفرطح وشارب متدل ، ثم عاد فنظر إلى الجنرال ستيوارت واستطرد يقول باتئاد : وإن الظروف التى سوف تحارب فيها تعتبر أفضل بكثير من تلك التى حارب فيها ويكوب وولنجتن . . . فإن صديقنا قطان باشا أمكنه الحصول على معلومات من مصادر لا يرقى

الشك إلى صدقها ، من مركز الاتصال المباشر بين القوات المتحصنة بالمدينة وعصابات مراد باشا من ناحية وبينهما وبين القاهرة من ناحية أخرى . . . وهذه المعلومات مدونة مع جميع التفاصيل هنا . . .

ومد الجنرال ستيوارت يده وتناول المظروف المغلق الذى قدمه له القائد العام للحملة واستطرد فريزر يقول : لقد قارنت هذه البيانات بالمعلومات السابقة والأنباء التى حملها إلينا مستر بتروتشى قنصلنا فى رشيد فوجدت أننا إذا أحسنا استخدامها فإن النصر لن يكون إلا لنا ... إن فرقتين من الجند تعدان قوة هائلة إذا ما قيست بقوات العدو وأسلحته المضحكة . . . وإن هزيمة المصريين مؤكدة لو أننا استعملنا سلاح المباغة ، دون أن نضيع وقتاً . . . لقد غادرت رسل المصريين رشيد منذ ساعات ليستنجدوا بالقاهرة بعد أن اكتشفوا أننا قد أتينا بقوات كبيرة من الإسكندرية وعيونهم ساهرة ترقبنا ، ويجب ألا نضيع الوقت الثمين ، فتأتى قوات من القاهرة لنجدتهم وفى هذه الحالة لا يستطيع أحد أن يتكهن بالنتيجة . . . إننى أترك كل شىء لحسن تصرفك وأنصح بالقضاء على عصابة مراد باشا أولا . . . إنهم شوكة فى جنب أية قوة تتقدم للاستيلاء على رشيد . . .

وكف فريزر عن الحديث ونظر إلى السير ولنجتن ثم قال له : يحسن أن تزود الجنرال ستيوارت بمعلوماتك عن هذه القوة التى خبرتها بنفسك مدة طويلة يا سير ولنجتن . . .

وبدا الارتباك على وجه ولنجتن وأحس بأصابع فولاذية تعتصر قلبه عند ما تبين نغمة السخرية فى كلمات القائد العام . . .

وابتلع ولنجتن ريقه وقال متردداً : . . . إنها قوة ... صغيرة ... أعنى . . . أنها مكونة من أربعمائة جندى جميعهم من الفلاحين وبعض الصياديين والأهالى . . . وهى على ضآلة أفرادها ؛ قوة سريعة الكر

والفر . . . وقائدهم يدعى مراد باشا السلحدار . . . تركى استوطن مصر سبعة عشر عاماً . . . كان أحد قادة الجيش التركى ، وكان يختلف عن غيره من قادة الأتراك الذين يحنون رؤوسهم لرغبات سلطان تركيا . . . وجاء الوقت الذى كان لابد فيه أن تصطدم رغبات السلطان باستقلال شخصية مراد باشا ومبادئه . . . فعزله السلطان من منصبه فآثر الرجل أن ينزح إلى مصر ... ليعيش فيها بعيداً عن خناجر أعوان السلطان . . . واشترى مزرعة كبيرة قريبة من رشيد . . . ومنذ أن خلع ثوب القائد وارتدى ثوب المزارع ، أخذ يعمل على اكتساب قلوب الفلاحين فهو يصلى معهم ويوزع عليهم هداياه ويدرس مشاكلهم ويعاونهم على حلها . . . وكان يدرب رجال مزرعته على كيفية القتال والدفاع عن الأرض ضد جباة الأتراك وهجمات المماليك . . . فأصبح مراد باشا فى نظر الجميع ... نصف إله ... يأمر فيطاع عن حب وإعزاز لا عن خوف وإرهاب . . .

وتنحنح الجنرال فريزر منبهاً السير ولنجتن إلى أنه قد خرج عن موضوع الحديث . . . فاضطرب جفنا سير ولنجتن دون أن يتوقف عن الحديث :

ـــ وعندما قمنا بهجومنا الأول بقيادة الجنرال ويكوب ولازمنا سوء الحظ حضر سعادة القائد العام من الإسكندرية ليشرف بنفسه على الحملة التى أسند قيادتها إلى بعد أن جرح للأسف الجنرال ويكوب ، كان على أن أواجه عدة عناصر معادية . . . قائد حامية رشيد التركى اللئيم . . . ومعه الأهالى المرابطون خلف التحصينات والأسوار . . . ومن خلفى قوات هذا الرجل . . . مراد باشا ، التى دربها على حرب العصابات . . . كانوا كالشياطين ينقضون على أطراف معسكرنا فى أوقات لم نكن نتوقع فيها أى هجوم . . . وعندما يستيقظ الجند ويتأهبون لتبادل إطلاق النيران

معهم يكونون قد فروا تاركين وراءهم بضعة عشر قتيلا وعشرات من الجرحى من جنودنا . . . وقد وجدت أن رجالى لم يعودوا قادرين على القتال بروح عالية ، فلقد عاشوا فى سلسلة من الحظ السيئ جعلت عزائمهم تخور . . وقد حاولت أن أقوم بهجمات ليلية مفاجئة على معسكر العدو وأنتقم لما أصابنا من هزائم ، وأسترد ثقة الرجال فى أنفسهم وفى . . . قيادتهم . . . وحاولت ست مرات . . . نعم . . . ست مرات ... وكانت كل هجمة نقوم بالإعداد لتنفيذها خطوة خطوة بعد تفكير عميق وعناية دقيقة ... ثم نبدأ هجومنا ... وفى اللحظة التى كنا نعتقد أن ليس بيننا وبين النصر النهائى إلا فاصل من اللحظات التى لا قيمة لها ... يفسد كل تدبير . . . وتنهار جميع الخطط . . . ونعود إلى خيامنا دون أن نفعل شيئاً . . .

فرفع الجنرال ستيوارت حاجبيه فى دهشة وقال : ... تقول ست هجمات تخفق فى اللحظة الأخيرة . . . كيف ؟ فقال السير ولنجتن بمرارة : المقنع . . . الشيطان المقنع ! . . . فازدادت دهشة الجنرال ستيوارت ونظر إلى ولنجتن نظرته إلى رجل ملتاث العقل : . . . ماذا تقول يا سير ولنجتن ؟ . . . شيطان . . . مقنع ؟ !! . . .

فقال الجنرال فريزر : إننى مضطر أن أقرر أمام مجلسنا هذا ، أنه ثبت لدينا . . . للأسف . . . أن لهذا الاعتقاد أثراً من الحقيقة وأن نشاط هذه الشخصية التى نشك فى وجودها بقدر ما نؤمن بها . . . قد تسبب فى إخفاق جميع هجماتنا على العدو . . . إننى أرجح أن يكون هذا المقنع أحد رجال مخابرات قائد حامية رشيد فقد بث حولنا العيون والأرصاد وأمكننا القبض على أربعة من جواسيسه خلال الأسابيع الماضية . . . ويبدو أن هذا المقنع أبرع رجاله على الإطلاق . . . إننى لواثق أن حنكة الجنرال ستيوارت الحربية وخططه التى تتسم بالمباغتة

سوف تكفل لنا الاستيلاء على رشيد قبل أن تصل معلومات المقنع أو غيره إليها . . . والآن . . .

والتفت فريزر إلى قطان باشا قائلا : باسم هذا المجلس أقدم شكرى لك على هذه المعلومات القيمة التى سيكون لها أثرها فى إحراز النصر على العدو ... ولن أنسى أن أنوه عن مجهودكم فى تقريرى إلى حكومة لندن . . . وصمت قليلا ثم قال : . . . أرجو أن تكون على استعداد للسفر معى إلى الإسكندرية بعد منتصف ليل الغد . . . سوف أحتاج إلى معونتك للاتصال بهؤلاء المماليك الذين لم يصلنا منهم رد حتى الآن. فوقف قطان باشا وقد فهم أنه قد آن له أن ينصرف وانحنى للجنرال فريزر والمجلس ثم قال : سأذهب الآن إلى رشيد . . . سوف أعود إلى هنا مساء الغد من الطرف الشمالى للمعسكر . . . ولكن . . . أرجو أن يسمح لى سيدى الجنرال باصطحاب ابنتى معى إلى الإسكندرية فإننى لا آمن عليها فى رشيد بعد ما حدث . . . وما سيحدث . . . فابتسم الجنرال فريزر وقال : لا بأس . . . لا بأس . . . سوف يسعدنى أن تكون حسناء كابنتك رفيقة سفرى إلى الإسكندرية . . . وانحنى الأرمنى ذو الرأس المفرطح والشارب المتدلى للجالسين فى أدب وانصرف. . .

والتفت الجنرال فريزر إلى ستيوارت قائلا : والآن . . . أرى من الأفضل أن تقوم بدراسة التقرير الذى سلمته إليك ، وسوف تجد فى معلومات مستر بتروتشى عوناً كبيراً لك على تقرير الخطة التى سوف تنتهجها . . . إنى واثق أن اختيارك للكلونيل ماكلود قائداً للقوة التى تتولى القضاء على عصابة مراد باشا اختيار موفق .

فقال ماكلود الذى كان يجلس متخشباً كأحد أصنام المعابد : أشكرك يا سيدى الجنرال وأرجو أن أكون أهلا للثقة التى شرفتمونى بها . . .

فسأله فريزر قائلا : كم يلزمك من الجنود لهذه العملية يا كولونيل ؟

فأجاب ماكلود وهو يبرز شفته السفلى ويضغط بها على العليا فى تفكير : ألف و ... خمسمائة جندى . . . وبدا فى عينى ولنجتن بريق ساخر ، فأدرك أنه قد بالغ فى تقدير العدد الذى يلزمه للقضاء على أربعمائة جندى من المتطوعين فاستدرك قائلا : إن على أن أحاصر المنطقة الشاسعة التى يسيطرون عليها ، وبعد ما يتم لنا الاستيلاء على الحماد ، يتحتم على أن أترك بها قوة كبيرة لصد أى زحف يأتى من القاهرة ريثما يتم لى الاستيلاء على بقية القرى الواقعة بين الحماد ورشيد وتطهير القطاع من كل مقاومة ، وهذه عملية كبيرة لتأمين ظهر الجنرال ستيوارت أثناء استيلائه على رشيد فقال فريزر : ما رأيك فيما يقوله كولونيل ماكلود يا جنرال ستيوارت .

— رأى صائب ولا شك ... إن الألفين والخمسمائة الباقين يكفون لأن أغزو بهم شمال مصر كلها . . . فقال فريزر وهو ينهض من مقعده ويتناول قبعته المريشة بيمناه ويمسك بقبضة سيفه بيسراه فى حركة مسرحية : هذا عظيم يا سادة . . . يبدو أن كلا منكم يحسن تقدير المهمة الملقاة على عاتقه . . .

ودفع فريزر مقعده إلى الوراء ثم وضع قبعته فوق رأسه والتفت إلى الرجال الذين وقفوا جميعاً لتحيته فى احترام وجمود وقال : لقد حان موعد ذهابى إلى الفراش . . . جنرال ستيوارت إنك منذ اللحظة مسئول عن كل شىء ، وأتمنى لك حظاً سعيداً .

— شكراً يا سيدى .

— برسى ! . . . أين كابتن برسى ؟

— هأنذا يا سيدى .

— هل أعددت كل شىء بما يكفل راحة جنرال ستيوارت وكولونيل ماكلود ؟

— نعم يا سيدى الجنرال .

ـــ بديع . . . فلنذهب الآن . . . طبتم مساء يا سادة . . .

وفى تلك اللحظة ، كان قطان باشا يتسلل على صهوة جواده من بين الخيام على مهل وهو يتلفت حوله متفحصاً كتل الظلام المحيطة به من كل جانب . . . ثم دار بجواده حول أكمة قريبة لينطلق من ورائها نحو الملاحات فى الشمال . . . وتوقف قليلا ليتبين المسلك الذى آثره على الطريق المألوف . . . كان القلق والأمل يتنازعان نفسه ويحاول كل منهما أن يستبد بها فأخذ قلبه يخفق بوحشية لم يعرفها من قبل . . . كان كل شىء قد سار حتى تلك اللحظة على ما يرام . . . فقد أدت نورهان الدور الذى رسمه لها بإتقان ، وقد أثنى فريزر على جهوده وشكره على المعلومات التى حملها إليه الليلة . . وكانت مكملة للمعلومات التى حصل عليها بتروتشي وسوف ترسل إليه حكومة لندن بشكرها على ما أداه للتاج البريطانى من خدمات ، وعندئذ سوف يطالبهم بالوفاء بوعدهم . . . تحرير أرمنيا .. . وارتسمت على وجهه المنتفخ ابتسامة تطفح بالبشر والهناء ، وأنصت بذهنه إلى فحيح خواطره . . . نعم . . . سيحررون أرمنيا وعندئذ لن يجد الإنجليز خيراً منى لحكمها . . . لقد خبروا دهائى وحنكتى ، وسوف يسرهم ولا ريب أن يكون حاكم أرمنيا صديقاً مخلصاً للتاج البريطانى . . . أما الشعب . . . هناك . . . فسوف يعدنى بطلا . . . البطل الذى حرر البلاد ، ولن يعترض أحد على كحاكم وزعيم . . . لن يجرؤ واحد على أن يقف أمامى ، وعندئذ . . . رباه !! . . . ما هذا الشىء الذى . . . يتحرك ؟ ! . . . ما . . . إن الظلام يتحرك ... إيه ! ... رجل !! والتفت قطان باشا خلفه بسرعة ليتبين مدى بعده عن معسكر الإنجليز فوجد أنه قد أصبح على مبعدة ربع ميل فمد يده وأخرج غدارته بسرعة ... كان شبح رجل يقفز بين النخيل بسرعة مذهلة ويقترب فى كل قفزة من مكانه . . . أين هو الآن ؟ . . .

ها هوذا . . . رباه ! إنه عملاق كالشيطان . . . ماذا ؟ . . . واصفر وجه قطان باشا واعتصر الخوف قلبه عندما قفز إلى ذهنه خاطر يهمس باسم الشيطان المقنع الذى طالما سمع به والذى كانوا يتحدثون عنه منذ قليل . . . واندفعت الخواطر تطن فى رأسه : ترى . . . هل قدر لكل أحلامى الجميلة أن تموت برصاصة من مثل هذا المخلوق وهى لم تزل بعد . . . أحلاماً ؟ . . . هل تضيع كل تضحياتى وجهودى هباء . . . هكذا ؟ . . . ويلى ! . . . ها هوذا قد اقترب . . . ماذا يريد هذا السفاك ؟ . . . إنه يرفع . . . ماذا ؟ ! . . . بندقية . . .

وسارع قطان باشا فصوب غدارته نحو الشبح ، وقبل أن يضغط أصبعه على الزناد صاح العملاق بصوت فيه رنين العجب وهو يخفض بندقيته ؟ من ؟ . . . قطان باشا ؟

وانطلقت رصاصة الأرمنى نحو صدر الرجل . . . وشاهده قطان يترنح فى مكانه ثم يسقط فى الظلام . . .

وانقضت لحظات قبل أن يفيق قطان باشا من أثر المفاجأة . . . وعندما تمالك نفسه واطمأن إلى أن الشبح الذى هتف باسمه لم ينهض ، أحس بعبء هائل ينزاح من فوق صدره وإن كانت الدهشة ما زالت مستولية عليه . . . وتساءل : . . . ترى كيف أمكن هذا الشيطان أن يعرفنى فى هذا الظلام ؟ . . . لا شك أنه واحد من أهل رشيد . . . بل لعله أحد عملائى . . . لقد كان شيئاً رائعاً أن قتلته ، وإلا . . . رباه ! لكان قد فضحنى ، ولطلع الصبح على رشيد ورأسى متدل من إحدى بواباتها . . . فليذهب إلى الجحيم . . . ولأسرع أنا الآن إلى رشيد . . .

الفصل العاشر

استدار إبراهيم ليضطجع على جنبه الأيمن وهو يكاد يئن من فرط التعب ، فقد كان يومه وليله حافلين بكفاح مرهق دائب .

كان قد فرغ لتوه من مهامه الكثيرة بين إشراف على حفر الخنادق ، وإقامة المتاريس فى مداخل المدينة ، وتوزيع الأهالى عليها وتنظيم إمدادهم بالبارود والزاد من البيوت القريبة بواسطة النساء والشيوخ . . .

ولقد أتم العمل الشاق فى يومين وليلتين طوال طوال ، لم يتذوق خلالها طعم الراحة ، ثم عاد إلى الدار فى غلالة من الغبار ، يترنح تحت وطأة الجهد المبذول وقد تحولت ضربات الفؤوس فى الخنادق إلى نبضات مروعة الألم داخل رأسه .

وارتمى على الفراش يبتهل للنوم أن يرحمه من ذلك الصداع الذى يكاد أن يفتت جمجمته ، ولكن النوم استعصى عليه .

كان عقله ينوء بالتفكير فى الخطر الداهم أكثر مما ينوء جسده بالرهق . . . وتسللت مع أصداء دقات الفؤوس خواطر اليوم والأمس ممعنة فى تأريقه وتهيئته للإحساس بذلك الألم الطاحن المنتشر فى كل ذرة من بدنه .

وتمنى النوم كما لم يتمناه من قبل . . . لو كان النوم شيئاً يشترى ! . . . متى يكف الوخز فى جنبى ؟ . . . ما أمتع أن يغرق المرء فى غيبوبة النوم مثل . . . مثل نورهان . . . وثبت بصره على الحسناء النائمة ، وظل يتأملها فى إمعان وكأنه يراها للمرة الأولى . . . سمع خواطره تفح فى رأسه . . . ترى ما ظنها بى ؟ ! . . . مخدع واحد ، وفراش واحد و . . . زمن طويل ، وزوج لم يقربها ! . . . لم أقبل هذا الفم . . . الشفة الوردية الرقيقة . . .

إن تقبيلها أمتع من النوم الهنيء ... وجدائلها الناعمة ... إننى لم أعبث بها، ولم أمس هذه الفاكهة التى تنضج بالأنوثة وتضج بالفتنة ...

وأدهشه أن يجد دفئاً عجيباً قد سرى فى دمائه لأول مرة منذ تزوج ، عندما اخترق ببصره ثنيات الغلالة الهفهافة ... وأخذ الدفء يتحول إلى حمم متقدة ...

وعلا فحيح خواطره هامساً فى أعصابه مباشرة فأنساه كل شىء ... أما آن لك أن تقذف بنفسك فى فراش زوجك ؟! ألست بشراً ؟ ... إنها زوجتك ... أنثاك ... ولن يلومك أحد .

وفى اللحظة التى هم فيها بالنهوض إلى الفراش، دوت فرقعة ضئيلة جعلته ينتفض ... وتلاشى الفحيح ... وتطاير الدفء من دمائه ... فاعتدل فى جلسته فى تحفز مرهفاً سمعه ... وتبادر إلى ذهنه أن ما كان يخشاه قد وقع ... وصل الإنجليز إلى البلدة وبدءوا هجومهم ... ولكنه لم يسمع سوى طنين أفكاره السريعة المتلاحقة ... وفجأة سمع صوتاً كأنه آت من جوف قبر سحيق يهتف باسمه ... فهب واقفاً واندفع هابطاً نحو باب الدار ... فقد كان الصوت آتياً من هناك ... وسمع وهو فى طريقه النداء المتخاذل يتردد مرة أخرى ، فأيقن أن الإنجليز قد جاءوا وأن المنادى رسول السلانكلى إليه ... وقبل أن يصل إلى الباب الخارجى صك سمعه صوت شىء ثقيل يرتطم بالأرض ، ففتح الباب وهم بالخروج ، ولكنه كاد أن يتعثر فى شىء متكوم على عتبة الدار لم يكن قد تبينه فى الظلام ، فانحنى فوقه ...

كان رجلا تلوثت ثيابه بدماء غزيرة قانية ، وقد انكفأ على وجهه وامتدت ذراعه وكأنما ليتشبث بأهداب الحياة فى لحظاته الأخيرة ... ورفع إبراهيم عينيه فرأى على مبعدة خطوات قليلة جواداً مسرجاً تدلى عنانه إلى الأرض ... وقلب إبراهيم الجثة الدامية ولم يلبث أن تبين

صاحبها ، فأطلق صيحة فيها من الدهشة بقدر ما فيها من جزع ... لقد كان الرجل ... سلامة ...

وألصق إبراهيم أذنه فوق صدر سلامة فى لهفة إلى سماع نبضات الحياة تتردد فى صدره ولم يلبث أن انتفض قائماً ونظر خلفه ... كانت أبواب المخادع قد فتحت ووقفت أمه بشعرها الأبيض وثوبها القاتم تنظر إليه فى ذهول ووقف والده إلى جوارها ممسكاً بشمعدان مضىء ... وما إن التقت عيناه بعينى أمه حتى صاحت وهى تدق صدرها فى التياع :

ــ ولدى ! ... محسن !!

فقفز إبراهيم إليها وهدأها مطمئناً وأعادها إلى غرفتها وهى لا تكاد تصدق أنه غير محسن ... وأغلق عليها الباب وهرول إلى الجريح المتكوم على عتبة الدار ... وحانت منه التفاتة إلى أعلى السلم فشاهدها ... كانت نورهان فى غلالتها الرقيقة وشعرها المتناثر فى فوضى حول عنقها تنظر إليه فى تساؤل وهلع ... فصعد إليها وأمسك بمعصمها وأدخلها غرفتها فى صمت ثم هبط إلى حيث كان أبوه منحنياً فوق سلامة ...

ودعا إبراهيم خادمهم يوسف ، الذى جاء مهرولا وهو يفرك عينيه ، فما إن وقع بصره على الجريح حتى انقطع تثاؤبه ، وتدلى فكه الأسفل فى رعب . . .

وتعاون الرجال على نقل الجريح إلى المنظرة الكبيرة ، فأرقدوه على أريكة كبيرة وألقوا عليه غطاء و بعث إبراهيم بالخادم فى طلب الحاج منصور الحلاق الذى اشتهر ببراعته فى إخراج الرصاص تلك البراعة التى اكتسبها عندما كان يعمل فى خدمة المملوك مراد بك ... وجاء الحاج منصور وهو يبسمل ويحوقل ، وطلب موقداً فأتى به يوسف وقد توقدت جمراته ... وأخرج الشيخ أدواته ... وتم كل شىء على ما يرام ، والجريح ما زال فى غيبوبة تامة ...

وانصرف الحاج منصور إلى داره ليكمل نومه على أن يعود إلى سلامة في الصباح ليطمئن عليه ... وجلس الرجال الثلاثة حول سلامة يتأملونه في أسى ... وأخيراً قال إبراهيم لأبيه في إشفاق : عد أنت إلى فراشك يا أبي ... سأسهر مع يوسف إلى جواره حتى الصباح وترقرقت دموع وفية في عيني العمدة ثم غمغم قائلا وهو ينصرف : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه ...

* * *

وأشرقت الشمس على الجريح المسجى فوق الأريكة وقد جلس حوله إبراهيم ويوسف وقد غلبهما النوم وارتفع شخير يوسف فغطى على دقات الباب الخارجي للدار ... وكان الطارق قد نفد صبره فهتف منادياً إبراهيم الذي قفز مستيقظاً وتلفت حوله ثم أيقظ يوسف فانقطع شخيره ثم فتح عينيه وتثاءب ... وعاد الطارق يدق الباب من جديد ، فقام يوسف مهرولا وفتح الباب ، وبعد لحظات دخل الحاج منصور محيياً في إشراق ومرح . . . ولم يلبث أن نظر إلى سلامة ثم إلى إبراهيم متسائلا فهز هذا رأسه وقال بأسف :

ــ كلا ... لم يفق بعد ...

فجلس الحاج منصور وقال : انظر إلى وجهه الممتقع ... مسكين سلامة ... لابد أنه قد نزف الكثير من الدماء ... ترى من الذي فعل به هذا ؟

ــ ومن يكون سوى إنجليزى وضيع ؟ ...

ــ ولكن هجومهم لم يبدأ بعد ... لعله تركى يلهو فأصابه ...

ــ إن الذى يحيرنى أن سلامة كان بالحماد ، فما الذى أتى ...

وأدرك إبراهيم أن لسانه موشك على البوح بما يجب ألا يتحدث عنه ، فبتر تساؤله ونظر إلى الحاج منصور قائلا :

ـ ترى هل يطول إغماؤه يا حاج ؟

ـ لاأظن أن ما فقد من دماء يؤثر فيه مثل ما يؤثر فى رجل عادى ...

والتفت الحاج منصور إلى الباب فهب واقفاً ... فقد كان طاهر بك واقفاً وهو ينظر نحو سلامة بإشفاق ... ووقف إبراهيم ويوسف احتراماً للشيخ الجليل الذى خطا إلى داخل المنظرة محيياً ، وارتفع صوت الحاج منصور يرد التحية : صبحك الله بالخير والصحة والإيمان يا سيدى العمدة ...

وجلس الجميع ... وجد الحاج منصور أن الجميع قد ران عليهم صمت حزين وقد تعلقت عيونهم بوجه العملاق الذى انطرح على الأريكة مغلق العينين ممتقع الوجه فأصابته عدوى القلق والتوقع ولكنه لم يلبث أن طرد ذلك الإحساس واندفع يروى ذكرياته بصوته الرفيع المرح وطريقته الشيقة ، فتحولت الأنظار إليه وبعد لحظات بدأت الملامح تنبسط والنفوس تهدأ ...

واعتدل الحاج منصور فى جلسته ومر بأصبعه حول الحزام الأملس الذى يحيط بقفطانه اللامع المخطط وهو يقول : كنت قد افتتحت حانوتاً للحلاقة أمام جامع الفكهانى بالعقادين ، واستأجرت داراً بالداودية على يسار الداخل من الدرب من ناحية الغورية ... وكنت قد تزوجت أم محمد وكان محمد فى ذلك الوقت عمره شهران ... وبعد زمن قصير أصبح حانوتى مفضلا لدى تجار الحى وأعيانه ، فكانوا ينفحوننى بالمال فى كل زيارة ويرسلون إلى بخدمهم محملين بالخيرات فى المواسم ، وخاصة السيد على الطحان ، صاحب الخان الكبير المجاور للمسجد ، مساه الله بكل خير ... لقد أدمن مجالستى حتى إنه ما من ليلة كانت تنقضى دون أن أجلس إليه على باب الخان نتعاطى الحديث الشهى ...

وتنهد الحاج منصور ... ثم استطرد يقول : هيه ... كانت الدنيا دنيا والخير كثير ، ولم يكن يشوه جمال الحياة سوى هؤلاء الأتراك الأراذل ...

واعتدل الحاج منصور وبدا على وجهه سيماء من سيروى حادثاً جللا ثم قال : تصوروا !! ...

ثم دق بكفيه متعجباً ومصمص بشفتيه فى دهشة واستنكار .

ولما بدا الشوق إلى معرفة ما وقع على وجوه الرجال قال الحاج منصور متئداً : كانت ليلة الجمعة الأولى التى أعقبت عيد الفطر ... وكنت قد عدت إلى الدار ومعى خير كثير ... لحم ضأن و برتقال وتمباك ... وكنت قد عدت فى تلك الليلة مبكراً ، فقد كان السيد على الطحان ، مساه الله بالخير ومنحه الصحة والعافية — كان قد لزم داره لمرضه بالحمى . . . فلم أجد خيراً من أن أعود مبكراً إلى أم محمد ، فقد كنت نادراً ما أجلس إليها فى غير أيام الجمعة ...

عدت إلى الدار وجلست أنتظر أن تفرغ من إعداد الطعام ... وكنت جائعاً ... جائعاً جداً، لأننى لم أكن قد أكلت غدائى فى ذلك اليوم ، فقد تصادف حضور ثلاثة زبائن أثناء تناولى الغداء ، وما إن انتهيت من ثالثهم حتى كانت شهوتى قد تلاشت وقضيت بقية يومى بمعدة نصف ممتلئة ...

الغرض ... كنت أنتظر أن تنتهى أم محمد من إعداد العشاء ، وإذا بى أسمع طرقاً شديداً على باب الدار ! ! ... جمدت لحظات فى مكانى دهشة وعجباً ... من يكون الزائر فى تلك الساعة المتأخرة ؟ وكنت قد انتهيت من صلاة العشاء منذ قليل ... ولكن الطارق العجول لم يدع لى فرصة أطول للدهشة والعجب ، فقد عاد إلى طرقه العنيف الذى كان له ما يشبه دوى مدافع القلعة ... فهرولت نحو

الباب وفتحته ، وإذا بى أمام جمع من الجند ... ثلاثة من الجند الأتراك بسلاحهم ومعهم بمباشى طويل عريض ... وقبل أن أفيق من ذهولى لرؤيتهم كانوا قد دخلوا إلى الدار وتوسطوا القاعة وقال لى قائدهم بلغة مضحكة لا هى تركية ولا هى عربية ، ودق الحاج منصور بكفيه مستغرباً ثم قال مقلداً البمباشى : يا آخى يا هبيبى ... أنا معى ثلاثة نفر ... نحن أقعد هنا أشرة أيام فاقاط ... نحن أقعد فى محل رجال ، وأنت مع هريم حظرتكم فى محل هريمات ...

واستعذت بالله من الشيطان الرجيم وكتمت الدم على القيح وتظاهرت بالسرور بذلك الشرف الهابط على بعد صلاة العشاء ... صعدت مع أم محمد والرضيع إلى جناح الحريم بأعلى الدار وتركت أسفل الدار للأتراك المدججين بالسلاح ... وكانت ليلة سوداء لم يعرف النوم خلالها طريقاً إلى عينى ... ومن الذى يأمن على حياته أو عرضه أو ماله تركياً ؟ ! ... الغرض ... لن أطيل عليكم ... طلع صبح اليوم التالى وظللت فى أعلى الدار مترقباً خروج الجند على أحر من الجمر ولكن انقضى اليوم بطوله وحل المساء دون أن يرحلوا بل كانوا يرسلون أحدهم فيعود بعد قليل محملا بقنان وطعام وتمباك ... وكان الرضيع قد أصبح يسعل من البرد ، وكنت قد تركت بعض الأغطية بأسفل الدار ، فهبطت فى المساء لأجمعها ، فتصدى لى البمباشى التركى وقال لى معاتباً فى صفاقة : وهل نجلس نحن على الحصير والبلاط ونتغطى بثيابنا ؟... أى شىء يصيب اللحاف أو الملاءة لو أنك تركتهما هنا ؟ ... ولا أكذب عليك يا طاهر بك ... لقد تركت متاعى لهم حياء وقهراً ، وصعدت إلى امرأتى وأنا أكاد أنشق من الغيظ والكمد ... ولن أطيل عليك ... لقد انقضت الأيام العشرة وتلتها عشرة وبعدها عشرة ولم يترك أولئك الأراذل دارى بل إنهم أتوا بقطيع جديد منهم حتى امتلأت

الدار بهم وصاروا يطلبون الطعام والشراب فاضطررت إلى أن أتكلف ذلك لهم وكانوا يستعملون أدوات بيتى ويطلبون الطشت والإبريق ويأمروننى أن أصب على أيديهم وأقدامهم الماء كلما أرادوا أن يغسلوها وصاروا يدخلون ويخرجون وأيديهم على الأسلحة وضاق عليهم المكان فطلبوا منى أن أخلى مكاناً بأعلى الدار لزملائهم فلما أظهرت لهم ضيقى ملأوا المكان على برائحة التمباك والعرق والفضلات ، واستعملوا القاعة الكبيرة مرحاضاً ، فضاقت أنفاسنا ، وإلى جانب كل هذه المصائب ، كنت لا آمن على امرأتى وولدى من شرهم طبعاً فلم أكن أبرح الدار ، وظل حانوتى مغلقاً ، وخرب بيتى ونفد ما كنت ادخرته للأيام السوداء . . . ولم أكن أظن أن لبعض الأيام سواداً بتلك الحلكة التى عانيناها والأتراك فى الدار . وأخيراً ، اضطررت إلى أن آخذ امرأتى وولدى ورحلنا تاركين دارنا ومتاعنا لأولئك ...

وقبل أن يكمل الحاج منصور روايته سمع هرج بصحن الدار ودخل الخادم ليعلن أن قطان باشا قد حضر ، فنهض الجميع وخرج طاهر بك يتبعه إبراهيم ليستقبلوا القادم الكبير ...

كانت ملامح قطان باشا الصلدة وعيناه المحملقتان إلى كل اتجاه تنبئ جميعاً بأن شيئاً ما قد حدث ... شيء رهيب ... ولم تفلح تلك البسمة التى اغتصبها إبراهيم من أعصابه ومشاعره فى أن تزيل بعض ما كسا وجه صهره من امتقاع ...

ونظر طاهر بك إلى الرجل فى فضول وجل دون أن يضيف إلى ما تلفظ به من عبارات الترحيب شيئاً ... وجاءت اللحظة التى سيطر فيها الصمت وحده على جو المكان ، وكان على قطان باشا أن يقول شيئاً يبدد به ما أوجده مجيئه من تلق وتساؤل ... وأخيراً ... فعل ... فقال فى صوت خفيض عميق وهو ينظر إلى نهاية الغرفة حيث تلتقى الأرض

بالجدار : إن إيزابيل العجوز تحتضر منذ الفجر ... لقد ساءت حالتها بدرجة أتوقع معها أن تودع الحياة فى أية لحظة ...

إن المسكينة لا تتمنى شيئاً قبل موتها إلا رؤية ربيبتها نورهان ... والوقت يمضى بسرعة لا تسمح لى بأن أحضر فى وقت أفضل من هذا ...

والتفت الأرمنى العجوز إلى إبراهيم وقال موجهاً إليه الحديث: أتأذن لها بالذ ... فقاطعه إبراهيم قائلا فى حرارة: طبعاً ، وعلى الفور ...

وهرول نحو السلم ليصعد إلى نورهان ولكن قطان سارع فناداه بصوت منخفض ، فالتفت إليه إبراهيم وقدمه على الدرجة الأولى ، فقال هذا فى صوت كالهمس : دعنى أنبئها بنفسى دون أن أصدمها . لقد كانت لنورهان بمثابة الأم من وحيدتها ...

* * *

وعندما هبطت نورهان بعد دقائق مستندة إلى ذراع والدها فى تخاذل مصطنع أمكن إبراهيم الذى كان لا يزال جامداً فى مكانه إلى جوار أبيه أن يلمح نظرة حزينة فى عينيها من خلف نقابها الهفهاف ... عندما أصبحت أمامه وهى فى طريقها إلى الباب الخارجى ببطؤ خطوها والتقت عيونهما وبدا لإبراهيم أن فى عينيها شيئاً ما . . . شيئاً غير الحزن البادى على ملامحها ... شيئاً كأنه عتاب ... لا ... بل أقسى من ذلك ... لعله تأنيب ... وساءلته نفسه : ترى فيم العتاب والتأنيب ؟ ... أتراها جنت فاعتقدت أننى المهيمن على ملاك الموت الذى يحوم حول مربيتها العجوز ؟ ! . . . لم ينطق أحد بكلمة . . . وسار الأرمنى وذراعه محيطة بكتف ابنته وهبطا الدرجات القليلة المؤدية إلى الفناء وداروا حول النافورة ، ثم قطعا الممشى المؤدى إلى الباب الخارجى والرجلان من خلفهما يسيران فى صمت . . .

وأغلق باب العربة السوداء وقفز السائق إلى مقعده المرتفع فى الأمام

وارتفع السوط وهبط مفرقعاً ، وانطلقت العربة الصغيرة والرجلان ينظران حتى غابت عند انحناءة الطريق وقال طاهر بك : مسكينة نورهان ... لقد كانت تجد فى إيزابيل بعض ما افتقدته من حنان الأم ... سبحان الحى الذى لا يموت ...

فطأطأ إبراهيم رأسه ولم يجد ما يقوله .

وسار إبراهيم متأخراً عن أبيه خطوة وهما فى طريقهما إلى الداخل ، وعندما صعد الدرج المؤدى إلى الطابق الأول قال طاهر بك : عد أنت إلى الحاج منصور وأخبرنى عندما يفيق سلامة . . إننى أشعر بدوار وسألزم غرفتى ...

ولما عاد إبراهيم إلى المنظرة الكبيرة كان الحاج منصور منحنياً فوق سلامة ووجهه يكاد يلتصق بوجهه ... وانتبه الحاج منصور إلى وجود إبراهيم فانتصب قائماً وقال بانفعال :

ـ لقد عاد إلى غيبوبته ، لا حول ولا قوة إلا بالله ...

فدهش إبراهيم وقال : أوكان قد استرد وعيه ؟

ـ نعم ... أفاق من غشيته لحظات ولم يلبث أن فقد رشده ... لقد أجهد نفسه بالحديث .

فقال إبراهيم متلهفاً : ماذا قال ؟

ـ فهمت أنه كان يراقب معسكر الإنجليز عند الطرف القريب من كوم الأفراح ، فشاهد رجلا يخرج من معسكرهم فصوب سلامة بندقيته نحوه ، وقبل أن يجذب الزناد تبين فيه شخصاً يعرفه ... واحداً من أهالى رشيد ، فخفض سلاحه وقد أدهشه وجود ذلك الرجل فى معسكر الإنجليز ، ولكن ذلك الرجل كان قد لمح سلامة فى الظلام فأطلق عليه الرصاص ...

ـ ومن ذلك الرجل؟

ـ لقد عاد إلى غيبوبته قبل أن ينطق باسمه .

ـ ألم يتكلم عن شىء آخر ... تحركات الإنجليز مثلا ؟

فنفى الحاج منصور ذلك بهزة من رأسه ... فدمدم إبراهيم وهو يقول حانقاً :

ـ أقسم بربى أن أزهق أنفاس ذلك الخائن بيدى لو قدر لى أن أعرفه ...

وجاء يوسف بالقهوة فقدم فنجاناً للحاج منصور ، وأشار إبراهيم للخادم أن يدع فنجانه فوق المائدة المنخفضة ... ولما انصرف يوسف نظر الحاج منصور إلى إبراهيم فرأى آثار الحنق على وجهه بادية فى وضوح فمد يده ووضعها فوق كتفه فى حنو وقال : اهدأ قليلا يا بنى فلن ينفعك هذا الغضب ...

ـ لن أستريح قبل أن أنتقم للدماء التى نزفها سلامة يا حاج ...

ـ سوف نعرفه عما قريب ، ولن يكون مناله بعيداً ما دام واحداً من أهل رشيد ، فقليلا من الصبر الجميل ... اشرب قهوتك وهدئ دماءك...

ولما وجد الحاج منصور أن بعض التجهم قد زال عن وجه إبراهيم وهو يرشف القهوة قال : هذا أجمل بن يمنى تذوقته فى رشيد كلها ... إن يوسف رجل ماهر فى مزج ماء الورد بالقهوة ... ورشف رشفة أخرى من الفنجان المذهب الصغير وقال : إن هذه القهوة المعطرة تذكرنى بالأيام الخوالى عندما كنت أعمل فى خدمة مراد بك ... لقد كان له مزاج خاص فى كل شىء حتى فى احتساء القهوة ...

كان لا يطيب له شربها إلا فى فناجين لها مظاريف من الذهب الخالص ... هيه ! ... عز وثراء ... تصور يا سيد إبراهيم ... أن محمد بك الألفى ، أصل البلاء ... تصور أنه كان يقتنى قصراً متنقلا ... ينقله معه على ظهور الجمال أينما ذهب ! ...

وبدت الدهشة على وجه إبراهيم ونظر إلى الحاج منصور فى شك وقال هذا مبتسماً : كان محمد الألفى يهوى التنقل والسفر ، فكان يقيم فى الشرقية ثلاثة أو أربعة أشهر من كل عام ثم يعود إلى القاهرة ليقضى فيها بقية العام وكان أثناء إقامته فى الشرقية لا يستقر فى أحد قصريه الكبيرين اللذين بناهما فى بلبيس والدمامين ، وإنما كان يقيم فى أرض عربان الشرقية فيقضى هنا شهراً وهناك بعض الشهر وقد اصطنع لهذا الغرض قصراً من الخشب فصله له النجارون قطعاً يسهل حملها وتماسك عند إقامة القصر بمشابك متينة من الحديد ، وكانت أجزاء القصر تحمل على عدة جمال فإذا أراد أن يحط رحاله فى مكان ما ، يقوم الجند والخدم بإقامة القصر فى وقت قصير وتتحول قطع الخشب إلى قصر صغير لطيف يصعد إليه بدرجات ثلاث ، وتفرش أرضه بالطنافس والوسائد ويتسع لثمانية رجال ، يعلوه سقف منقوش ونوافذ من الجهات الأربعة تفتح وتغلق ، وحوله الأسرة من كل جانب ... وكان له بالأزبكية قصران لم يقنع بهما ، وأراد أن يبنى لنفسه قصراً يدل به على سائر الأمراء فاشترى قصر ابن السيد سعودى عند قنطرة الدكة وهدمه وقام بنفسه بوضع تصميم القصر الجديد ، وأمر أربعة من كبار أمرائه بملاحظة الصناع وحثهم على العمل ، واحداً فى كل جهة من جهاته الأربعة وأقاموا عدة قمائن لحرق الأحجار وطواحين الجبس وأتوا بالأحجار الضخمة من تلال طرة على المراكب ثم نشروها ألواحاً كباراً لتبليط الأرض وعمل الدرج ، وأحضروا للقصر الأخشاب المختلفة من بولاق والإسكندرية ورشيد ودمياط وأهدى إليه الإنجليز نافورة مرمرية عظيمة بها تماثيل لأسماك يخرج الماء من أفواهها ، فأقامها ببستان القصر وتم بناء القصر ودهانه ، ففرشه بالوسائد والمساند والستائر وأضاءه بالقناديل والنجف ، والفنيارات ، فنزل الألفى بالقصر مع أولاده وحريمه ، وازدحمت خيول الأمراء ببابه.

وسكت الحاج منصور هنيهة ثم قال متسائلا : من أين يأتون بكل هذا المال؟ إن المرء منا يكد ويشقى ويسهر ويسعى ويجرى ويقفز ويمشى وهو لم يفز بأكثر من قوته وقوت عياله ... فقال إبراهيم : من دمائنا يا حاج ... من النهب والسلب ... إن ما يتمرغون فيه من نعيم لا يساويه أى مجهود بشرى فردى شريف مهما كان ...

ـ صدقت ... لقد كانوا يرسلون زبانيتهم إلى بيوت الناس ليجمعوا ضرائب جديدة لم تكن تفهم لها سبباً . . . لقد بعت ذات مرة نحاس امرأتى لكى أدفع لهم الضريبة وفى اليوم التالى جاء غيرهم يطلبون الضريبة نفسها فلما علموا أننى دفعتها لمن سبقهم ، أبوا أن ينصرفوا قبل أن أعطيهم حق الطريق ؟ ... لقد استدنت من جارى السيد عكاشة مجيدياً دفعته لهم ثمناً لمجيئهم إلى دارى لمطالبتى بشىء لا حق لهم فيه ... لا بارك الله لهم فى شىء . وحتى جند الوالى الجديد ، إنهم لا يفضلون جند المماليك فى شىء ... بل لعلهم أكثر من هؤلاء صفاقة ، فقد كانوا إذا جاء يوم الجمعة ، يرتدون أفضل ثيابهم ويحملون الهراوات المفضضة ويدورون على بيوت الأعيان والتجار يتسولون المنح والعطايا بلا حياء أو كرامة ... لقد دخلوا علينا ذات يوم وكنا فى دار السيد على الطحان بالجمالية ، وكان المجلس يضم جمعاً من أعيان الحى وتجار بين القصرين . اقتحم الأتراك المجلس رغم مقاومة الخدم لهم ، ولم ينصرفوا إلا والمنح فى جيوبهم والغم فى نفوسنا . وما إن ينصرف هؤلاء حتى يأتى غيرهم وهكذا دواليك ... هيه ... ماذا أقول لك يا سيد إبراهيم ؟

لقد ضيقوا علينا سبل الرزق فى كل شىء ... كنت إذا ذهبت إلى ساحل بولاق أو مصر القديمة لأشترى أردب غلة أو حمل حطب أو أى شىء لا يدعنى الأتراك عند قنطرة الليمون أمر قبل أن أدفع لهم نصف فضة وأعطيهم بعضاً مما أحمل ، وكذلك يحدث عند الباب الحديد

وعند كل مدخل إلى القاهرة مثل باب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وباب العدوى وطرق الأزبكية وباب القرافة .

وانقضت ساعة وبعض ساعة وإبراهيم يصغى إلى ثرثرة الحاج منصور عما وقع له فى القاهرة ، وفجأة فتح الجريح عينيه فانتفض إبراهيم فى مكانه وقام فانحنى فوقه ولم يلبث أن اتجه إلى المائدة الرابضة فى ركن المنظرة فأفرغ من الدورق البلورى قدحاً من الماء أمسك به بعناية وهو يصب الماء بين شفتى سلامة ...

وأخيراً قال سلامة بصوت خافت : حذار يا إبراهيم ... حذار من صهرك ... قطان باشا ... فهتف إبراهيم مأخوذاً : ماذا تقول يا سلامة ؟ أفق يا رجل ... فقال سلامة بنفس الصوت الخافت : أنصت يا إبراهيم ... إننى ... فى تمام وعيى ... قطان باشا كان عند الإنجليز ... لقد رأيته بعينى ... ولما هتفت باسمه عندما رأيته مساء الأمس وهو يغادر معسكرهم ، أطلق على الرصاص ... قطان عميل للإنجليز ... لقد أردت اللحاق به بجوادى لأقتله ، ولكن دمائى كانت تنزف ... وكان هو قد ابتعد كثيراً ... صدقنى يا إبراهيم ...

فقال إبراهيم مشفقاً على الرجل الذى كانت لهثات الألم تقطع كلماته : كفى يا سلامة ... إننى أصدقك ... لا ترهق نفسك بالحديث ...

ونصب إبراهيم قامته وقال للحاج منصور فى تصميم :

— ابق إلى جواره ، إن يوسف قد أوشك أن ينتهى من إعداد المرق له ، أما أنا فسوف أعود بعد قليل ...

فقال سلامة بصوته اللاهث الخافت : إلى أين ؟

فقال إبراهيم وهو يغادر الغرفة : إلى الخائن ...

وامتطى إبراهيم جواده وانطلق به مخترقاً الدروب والساحات نحو شرقى البلدة حيث كان يربض على ضفة النيل الشرقية قصر قاتم كبير يتوسط حديقة كبيرة كثيرة الأشجار والنخيل ويحيط بها سور مرتفع من الأحجار يحجبها عن العالم ...

واقترب إبراهيم من القصر فارتدت إلى مخيلته هيئة الأرمنى مع ابنته عندما باغتهما بدخوله فاضطربا وكفا عن الحديث بالأرمنية ، ثم تظاهرا بالضحك لشيء رواه المرائى ... وتذكر الظروف التى أدت إلى تلك الزيجة الغريبة ... الوعيد ... التلويح بالديون ... وتلك النظرة اللائمة القاسية ... إنها ليست لوماً ... لا ... إنها نظرة الظفر الساخر ... نظرة الشامت ... الفاجرة ، ابنة الفاجر تاجر الأعراض والخيانة ... سأقتله ...

وهبط إبراهيم من فوق جواده ويده على مقبض غدارته وصعد سلم القصر الموحش قفزاً ودفع الباب الضخم ودخل إلى القاعة الشاسعة ... وتلفت حوله ... كانت خالية من الناس ، لا صوت ولا حركة ... وتقدم صوب السلم الكبير ولكن صوتاً هادئاً رن فى القاعة يقول : لقد غادر الباشا ومعه الهانم الصغيرة والسيدة العجوز القصر منذ ساعة ...

فأخذ إبراهيم واستدار نحو مصدر الصوت كالبرق وقد أخرج غدارته فرأى العم هاشماً البستانى العجوز واقفاً عند الباب الكبير ... فصاح إبراهيم : أواثق أنت مما تقول ؟

ــ تمام الثقة يا سيدى ... لقد غادروا القصر فى العربة السوداء وكان الباشا يقودها بنفسه وقد سرح جميع الخدم والحوذى ودفع لهم أجورهم ولم يبق أحداً سواى لحراسة القصر ... لقد شاهدتك وأنت تدخل ... كنت أقلم الصفصافة الكبيرة ...

وأعاد إبراهيم غدارته إلى مكانها واقترب من البستانى العجوز وقال :

ـ وأين ذهبوا جميعاً ؟

ـ من ؟ الخدم ؟

ـ كلا ... السادة ... الباشا ، وزوجتى ؟

فقلب الشيخ كفيه وقال : يعلم الله ، لقد قال الباشا إنهم سيسافرون وسوف يعودون يوماً ما ... إلى أين ؟ ... لست أدرى ...

ـ هل كانت إيزابيل فى النزع الأخير ؟

ـ النزع الأخير ؟ ! ... إنها قوية كالحصان ، عنيدة كالبغل ... إنها أقوى منك أنت ...

ـ فى أى اتجاه سارت العربة ؟ ...

فأشار البستانى إلى الشمال وقال : من هنا ... نحو الساحل ...

فشكره الشاب وهبط السلم فى عجلة وقفز إلى ظهر جواده وانطلق فى أثر غريمه ...

كانت الشمس قد توسطت السماء عندما نظر إبراهيم خلفه فشاهد القصر الكبير عند الأفق ... لم يكن يدرى إلى أى اتجاه يسير . . . وساوره شك فيما أنبأه به البستانى وخطر له أن يعود فيعتصر رقبته بين أصابعه حتى يفضى إليه بالحقيقة ولكنه طرد ذلك الخاطر ...

وعلى مبعدة شاهد عشة صغيرة أمامها طفلان فى ثياب رثة يلعبان مع بعض الدواجن وقد افترشت أمهما الأرض وأمامها رحى تديرها بكلتا يديها فلما اقترب إبراهيم من العشة مال نحوها بحصانه فتوقفت المرأة عن الطحن دون أن ترفع يديها عن مقبض الرحى ووجم الطفلان ورفرفت الدجاجات بأجنحتها العاجزة وتفرقت قافزة هنا وهناك فى حماقة ، وصاح إبراهيم قائلا : هل شاهدت عربة سوداء مرت من هنا منذ ساعة يا خالة ؟ فأشارت المرأة نحو الغرب قائلة : إن كانت العربة السوداء التى يقودها إفرنجى فقد اتجهت إلى هناك . . . إلى الملاحات . . .

ونظر إبراهيم إلى حيث تشير المرأة ... كانت الملاحات بلونها الوردى المترب ممتدة حتى الساحل فى الشمال وإلى ما لا نهاية نحو الغرب . . .
وحيره أمر الأرمنى . . . وتساءل : ترى، أين ذهب ؟ . . . وإلى أين يمكن أن يصل من هذا الطريق؟

وقفز إلى ذهنه خاطر جعله يلكز جواده وينطلق به إلى الملاحات . . . لا بد أنه يريد الوصول إلى الساحل من هذا الطريق القفر . . . ثم يسير بحذاء البحر حتى يصل إلى الإسكندرية . . . خطة شاقة التنفيذ ، ولكنها مأمونة العاقبة . . . يمكننى أن ألحق به بعد ساعة واحدة ، عندئذ سأبعث بروحه إلى جهنم بأسرع مما يريد الوصول إلى الإسكندرية . . .

وانقضى نصف ساعة من السير فوق أرض هشة اختلط فيها التراب بكتل الملح الصغيرة ، وكاد أن يعثر به جواده فوقها مرات كثيرة لولا حذره ويقظته . . . وتوقف لحظة متلفتاً حوله فى كل اتجاه وهو يعجب لعدم عثوره على أثر للعربة الصغيرة فوق الأرض الهشة ثم عاد فانطلق بأقصى سرعته نحو الجنوب الغربى فى الطريق إلى أقرب بلدة تعترض المسافر إلى الإسكندرية . . . إدكو . . .

ومضت ساعة من الركض السريع المتوالى حتى بدت إدكو ببيوتها الصغيرة المتناثرة على شاطئ البحيرة الساكنة . . . واقترب إبراهيم من جماعة من الصيادين كانوا ينشرون شباكهم على الرمال الناعمة ويثقلون أطرافها بالأحجار . . . ومال بحصانه فسأل أحدهم عن عربة سوداء صغيرة يقودها أرمنى أحمر الوجه مفرطح الرأس ، ولكن الصياد هز رأسه هزة جعلت اليأس يتسرب إلى نفسه ، وقبل أن يستدير بجواده ليعود إلى سهوب الملح الوردية ليعاود البحث من جديد ؛ استوقفه الصياد وهرع

نحو شيخ مجعد الوجه كان قابعاً على حصير ممزق تحت شجرة منخفضة الأغصان وقال :

ـ أنت هنا منذ الصباح كعادتك يا شيخ بدوى . . . هل رأيت عربة سوداء يقودها رجل أحمر الوجه؟

فقال الشيخ بدوى بصوت خائر مرتعش : عربة سوداء ؟ . . . كلا يا بنى . . . لم تمر من هنا عربات منذ أمس . . .

وشكر إبراهيم الرجل وانطلق عائداً ونفسه تكاد تنفجر بالحنق على الأرمنى وعلى الصياد وعلى كل شىء . . .

كانت الشمس تصلى الأرض وما عليها بلهيب خانق ، فآثر إبراهيم أن ينحرف بجواده نحو الدرب الضيق الظليل عند حافة المزارع الخضراء فى الجنوب ، فاندفع مخترقاً السهوب الملحة حتى وصل إلى الدرب المنشود ودار معه حول الحقول المترامية وهو يسائل نفسه فى حيرة : أى طريق يسلك ؟ وفى أى مكان من هذا الإقليم اختفى الخائن وابنته ؟ . . . وقبل أن يسترسل فى تساؤله الحائر حانت منه التفاتة إلى حافة الملاحة القريبة فرأى خطين متوازيين يبعد أحدهما عن الآخر مقدار خطوة وقد خطتهما فى الملح عجلتان . . . . وجذب الفتى عنان الجواد وتوقف ليتأمل امتداد الخطين . . . كانا يمتدان على طول الدرب الفاصل بين الملاحات والمزارع . . . من الاتجاه القادم من شمال رشيد إلى . . .

واستدار ليتبين الاتجاه . . . وعلى مبعدة ثلاثين خطوة ، شاهد إبراهيم الخطين ينحرفان جنوباً حيث ينحنى الدرب فى طريقه إلى . . . الحماد . . . إذن ، فالوغد قد اتجه إلى الحماد !! إلى الإنجليز !! . . .

وانطلق إبراهيم على الأثر . . .

ومضى أقل من ساعة قبل أن يلمح إبراهيم تلك النقطة السوداء التى كانت تتحرك مقتربة من الأفق ، حيث بدت خيام الإنجليز كنقط

بيضاء ضئيلة . . .

حث إبراهيم جواده على العدو ، فاستجاب له . . . وأخذت النقطة السوداء تكبر ، وتكبر . . . وتتضح . . . وبدت العربة السوداء . . . ثم بدا فوقها رأس ضخم مفرطح . . . رأس قطان . . . فأخرج إبراهيم غدارته ، وعندما رفع يده ليصوبها ، كانت رصاصة الأرمنى أسبق إليه . . . ومرت الرصاصة بجوار أذنه دون أن تصيبه . . . فجذب إبراهيم الزناد . . : ودوت الرصاصة . . . وشاهد إبراهيم الأرمنى يقفز إلى أعلى والقياد فى يده ثم يسقط فى مقعده . . . وظلت الخيل تعدو بجنون وإبراهيم يلاحق العربة . . . دفعت اهتزازات العربة بالأرمنى من فوق المقعد شيئاً فشيئاً حتى تدلى بدنه وأخذ رأسه الدامى يرتطم بالعجلة اليسرى بقوة . . . وأخيراً سقطت جثته على الأرض ، واندفعت الخيل المجنونة منطلقة بالعربة نحو المعسكر الإنجليزى بلا قائد فى حين تعالت من داخلها صرخات رعب مدوية .

وتوقف إبراهيم عند جثة الأرمنى ، ونظر إليه متحققاً من موته ، ثم حشا غدارته وصوبها نحو الرأس الضخم المفرطح من جديد . . . كان يريد أن يثقب برصاص غدارته كل جزء من بدن الرجل الذى خدعه . . . ولكنه عاد فضن برصاصته الثانية أن تضيع هباء . . . فأعاد غدارته إلى مكانها ونظر إلى الجثة ثم بصق على الشارب المتدلى الذى كان قد تلوث بالدم والتراب . . . وسمع صيحات ثم دوياً من بعيد ، فرفع عينيه إلى اتجاه العربة . . . كانت قد انقلبت براكبتيها عند خيام الإنجليز وقد تجمع حولها بعضهم . . . ثم شاهد جمعاً منهم يتهيأ لامتطاء الجياد وهم يشيرون نحوه فاستدار بجواده منطلقاً كالعاصفة صوب رشيد . . .

وعندما عاد إبراهيم إلى الدار ليطمئن على الجريح العزيز كان الأفق قد تخضب بالشفق . . .

الفصل الحادى عشر

كاد النهار أن ينتصف عندما لاحت لإبراهيم من بعيد مآذن القاهرة وقبابها ، فسرى النشاط فى أعضائه ، ولكز جواده المتعب فانطلق يركض به على الطريق المترب بين المزارع وأشجار الجميز صوب الباب الحديد . . . ولاح له على يمين الطريق ثلاثة من أطفال الفلاحين يلعبون ، وما إن رأى الأطفال إبراهيم قادماً نحوهم حتى ابتعدوا عن الطريق وهم يلوحون بأيديهم الصغيرة المتسخة صائحين : الجندى ... الجندى ... ولم يلبث أن خرجت من دار قريبة فلاحة وهرولت فى ثوبها الأسود الطويل نحو الأطفال ثم نهرتهم قائلة : صه يا أولاد . . . اخرسوا . . .

ثم أمسكت والتفتت فى ذعر نحو الفارس القادم وأسرعت فقادت الأطفال أمامها نحو الدار فى هرولة وهى تقول : أتريدون أن تقتلوا كما قتل ابن الشيخ عمارة ؟

وأدرك إبراهيم أن المرأة ظنته أحد جند الأتراك الذين لا تساوى حياة أى مصرى لديهم قلامة ظفر . . .

وعندما وصل إلى الباب الحديد جذب عنان جواده ودخله متمهلا ودار بعينيه فيما حوله متفحصاً ، فرأى جماعة من الجند الشراكة المسلحين بالسيوف والبنادق الطويلة بين جالس وواقف ومستند بظهره إلى الحائط . . . ووجد ثلاثة منهم وقد التفوا بفلاح مسن ممسك بحمار أعجف يحمل فوق ظهره سلتين من الطماطم . . . وكان الفلاح يتوسل إليهم أن يدعوه يدخل إلى المدينة ويقول :

— والله ما معى نصف فضة يا جندى . . . أنا لم أبع شيئاً بعد . . .

— لازم إدفع نصف فضة . . . فاهم فلاح ؟ !

ـ أبقاك الله يا جندى . . . دعنى أمر . . . والله ، ثلاثة بالله . . . قسم ترتج له السماوات والأرض سأدفع لك عند خروجى آخر اليوم . . .

فقهقه الجند ساخرين وقال أحدهم وكان ذا شارب ضخم :

ـ إنت إضحك ألينا فلاح ؟ . . . إدفع يوق . . . دخول يوق . . . سكتر يا للا . . . جنس هايفان . . .

ـ يا جندى حرام عل . . .

ولكن الجندى لم يمهله حتى يتم كلامه ، بل وكزه فى صدره وكزة جعلت الفلاح يترنح ويكاد يسقط على الأرض . . .

وعاد الفلاح إلى التوسل فصاح فيه الجندى غاضباً : سوس فلاح . . . سكتر يا للا .

ـ يا جندى خذ بدل النصف فضة طماطم . . . إننى أسعى من أجل قوت عيالى . . . خذ طماطم مثل الورد . . . خذ بنصفين لا بنصف واحد ودعنى أمر . . . الله يسترك . . .

فانفرجت أسارير الجندى ونظر إلى زميليه ، ولم تلبث أيديهم أن امتدت إلى داخل السلتين تنتقى أطيب ما فيهما ، والفلاح ينظر إليهم فى جزع وحسرة ولا يجسر على الاحتجاج . . . وبعد أن نهب الجنود ما شاءوا وضع أحدهم طماطمة فى فمه وأخذ يلتهمها بشراهة وقال وهو يزدردها :

ـ يا للا فلاح . . . عند خروج . . . إدفع نصف فضة . . . إدفع يوق . . . خروج يوق . . . سكتر . . .

ونظر الفلاح إلى السلتين . . . كان الجند قد نهبوا نحو نصفهما وتركوا الباقى وقد أتلفت مخالبهم معظمه ، فجر حماره والدموع تطفر من عينيه وابتعد خطوات ثم سمعه إبراهيم يغمغم فى حسرة وألم : الله يخرب بيتك يا جندى أنت وهو . . . وكأنما خشى الرجل أن يكون أحدهم قد

سمعه فقد التفت وراءه جزعاً فوجد الجند مشغولين بنهب فلاح آخر يحمل بضاعته من البيض والجبن . . .

ولم يتمالك إبراهيم نفسه من أن يعض شفته حنقاً وقهراً ، ولكز جواده في عصبية فاندفع به وسط الزحام غير مكترث بسباب الجند الأتراك وصياحهم . . .

وأعماه الغضب مما رأى ، فكاد يصطدم بجواده بأحد السقائين الذي صاح في اللحظة الأخيرة : حاذر يا جندي . . .

واجتاحه ضيق بكلمة (جندي) التي تقابله في كل مكان . . . وأوشك أن يترجل كيلا يظن أحد أنه واحد من أخلاط الترك ، ولكنه سرعان ما طرد ذلك الخاطر عندما تذكر أن عليه أن يبلغ الرسالة إلى السيد عمر مكرم في أقرب وقت ممكن . . .

وعندما وصل إلى باب البحر ، وجد الطريق ضيقاً مكتظاً بالناس ، فجذب عنان جواده وتمهل في سيره ومضى يتأمل ما حوله من حوانيت وأزياء وعربات وباعة متجولين . . . ونفذت إلى أنفه رائحة سال لها لعابه ، كانت رائحة سمك مقلي تفوح من أحد الدكاكين الصغيرة العديدة المصطفة على الجانبين ، وتذكر أنه لم يذق طعاماً منذ غروب اليوم السابق عندما كان في ميت غمر . . .

وراودته نفسه أن يعرج على الدكان ليشتري بعض السمك ، غير أنه تذكر أن عليه أن يبلغ الرسالة أولا فأسرع بالمسير . . .

وعندما وصل إلى باب الشعرية ، تمهل فوق الجسر الخشبي الذي يصل بين ضفتي الخليج الضيق الطويل الذي كان يتلوى بين الدور كثعبان أسود لامع لا يكف عن الحركة . . . وجذبت اهتمامه البيوت القائمة على حافتيه وكأنها مبنية فوق الماء ، وقد كست الطحالب الدقيقة أسفل جدرانها فبدت وكأنها طلاء أخضر متعرج من أعلى ، يمتد من دار

إلى أخرى إلى ما لا نهاية ، وقد تسلقت الرطوبة الجدران حتى جاوزت الطوابق الأولى إلى أسفل المشربيات الصغيرة ، وكان لمعظم البيوت سلالم حجرية صغيرة تبدأ من الطوابق السفلى وتنتهى إلى مياه الخليج . وشاهد على أحد هذه السلالم عبداً أسوداً يلقى ببعض القمامة إلى الماء ، وعلى سلم دار أخرى رأى عجوزاً تساوم أحد باعة الخضر الذين يتجولون ببضاعتهم فى قواربهم الصغيرة .

وانتبه إبراهيم على صوت كالدوى المتواصل يعلو على الضوضاء ، فالتفت وراءه ، فوجد جماعة من الجند الأتراك يركضون بخيولهم وهم يتصايحون ، والناس يفسحون لهم الطريق فى ذعر وهرولة ، واندفعت ثلة الترك بجواره ، وعبرت الجسر .

وما إن وصلت إلى الضفة الأخرى حتى دوت صرخة عالية . . . وانقشع الغبار ، وتبين له أن الجند قد داسوا بسنابك خيلهم امرأة كانت تجلس عند مدخل الجسر أمام سلة تبيع منها الفجل والليمون ، ولكنهم انطلقوا غير آبهين لما حدث . . . وتجمع المارة حول المرأة ، ووجد إبراهيم نفسه يطلق لجواده العنان للحاق بعصبة الأتراك ليفرغ فى رؤوسهم غدارته ، ولكن زحمة الطريق عاقته عن التقدم السريع ، ووجد أن اللحاق بهم ضرب من المحال . . .

وتشنجت أصابعه على عنان الجواد وغمغم فى كمد : يا أحط الخلق ، يا خنازير . . . وقبل أن يسترسل فى نطق بقية كلمات السخط المتدافعة على لسانه ، انساب إلى سمعه صوت مؤذن يدعو إلى صلاة الظهر من قمة مئذنة أحد المساجد المجاورة ، فاندفع نحو سوق الليمون ليتجه من هناك إلى دار السيد عمر مكرم . . .

وعندما وصل إبراهيم إلى الدار الكبيرة التى يسكنها السيد عمر مكرم ترجل وقيد جواده بمربط الخيل إلى جوار الباب الكبير ، وتردد فى الدخول

لحظة وهو يتحسس موضع الرسالة من صدره ، ثم دخل ...

وإلى يمين الباب مباشرة ، وجد قاعة فسيحة مزدحمة بالأرائك وغطيت أرضها بسجاجيد كبيرة ، ووجد جمعاً من الرجال ، جاوز معظمهم العقد الخامس ، جالسين على الأرائك وقد تشاغل بعضهم بالحديث ، في حين قبع الباقون صامتين ، أو منهمكين في احتساء القرفة .

وأدرك إبراهيم ، أن تلك هي قاعة المنظرة التي ينتظر فيها زوار نقيب الأشراف ، فدخل وأقرأ الجمع السلام ، فانتبه المتحدثون ورفع الصامتون وجوههم إليه وتعالت تحيات الجالسين مع جميع الأركان ...

وقبل أن يقع إبراهيم في حيرة ، وجد شيخاً وقوراً سمح الوجه ربع القامة يقوم من مجلسه فوق الأريكة المجاورة للباب ويتجه نحوه وقد اكتسى وجهه بابتسامة مرحبة قائلا : أهلا وسهلا ... تفضل ... وأشار الرجل إلى الأريكة التي كان يجلس عليها ...

فقال إبراهيم وقد بدت اللهفة في صوته : أشكر سيدنا الشيخ ... إنني أرغب في مقابلة السيد عمر مكرم ...

فقال الرجل والابتسامة لم تفارق وجهه : وأي شيء تريده من السيد ؟

فنظر إبراهيم في حرج ثم قال : أريده ... أعني أريد أن أقابله لأمر هام ولا يحتمل التأجيل ...

فسأله الشيخ بلطف قائلا : أولا يستطيع أحد غير سيدنا النقيب قضاء حاجتك ؟

— لا أظن ... إنني ... أحمل له رسالة .

— ممن ؟ !

— من رشيد ...

فرفع الشيخ حاجبيه ثم قال : آه ... من رشيد ! ... تفضل بالانتظار هنا إن شئت ... أو تعال لمقابلته بعد صلاة العصر ...

ـ ولكن الأمر لا يحتمل التأجيل و . . .
ـ إن السيد خرج إلى بيت القاضى ، وسوف لا يعود قبل العصر ...
وشاهد الشيخ الحيرة تكسو وجه إبراهيم فأمسك بذراعه وقال :
ـ تفضل بانتظاره مع المنتظرين وسوف تكون أول من يقابله عند حضوره . . .

فأنس إبراهيم بالرجل وأحس بطمأنينة تسرى إلى نفسه من نبرات صوته ووجد نفسه يجلس إلى جوار الشيخ على الأريكة وهو يغمغم بعبارات الشكر . . .

وقدمت القرفة لإبراهيم فاحتساها وقبل أن يضع فنجانه الفارغ على المائدة المنخفضة سمع الشيخ يقول له : هنيئاً . . .
ـ هناكم الله بالجنة والإيمان . . .
وسأله الشيخ فى رقة واهتمام : وكيف حال رشيد ؟
ـ تركتها والإنجليز يجمعون قواهم للوثوب عليها . . .
فقطب الرجل حاجبيه وقال : ومراد باشا ؟ . . . لماذا لا يبادر بالهجوم عليهم قبل أن يستجمعوا قواهم ؟ . . .

فابتسم إبراهيم فى مرارة واندفع يروى له آخر تفاصيل الموقف ، والشيخ ينصت باهتمام شديد ، إلى أن ختم إبراهيم قصته بقوله : إننا فى رشيد والحماد واثقون من انتصارنا على الإنجليز لو أن الوالى بادر فأرسل جيشاً يعاوننا ، ولقد قدمت لهذا الغرض . . . فقال أحد الرجلين الجالسين على الأريكة المجاورة ، وكان قد سمع كل كلمة رواها إبراهيم :

ـ إنك لن تسمع الصم الدعاء .
فصوب إليه إبراهيم نظرة دهشة واستنكار وسأله : ماذا تعنى ؟
ـ أعنى أن محمد على ليس بالرجل الذى يعتمد عليه فى مثل هذا

الأمر . . إنه ثعلب مراوغ لايوثق به .

ـــ ماذا تقول ؟ . . . الوالى ؟!

ـــ نعم ... الوالى ... إنه وصولى لا يختلف فى كثير عن غيره من الولاة ، وكل ما يتميز به هو إتقان المخادعة والتهام الفرائس فى الوقت الملائم .

ولم يشأ إبراهيم أن يصدق أذنيه ، فقد كان معنى هذا أن مجيئه إلى القاهرة عبث لا طائل من ورائه ، وأن رايات الإنجليز سوف ترفرف فوق قلاع مصر عما قريب ، فأدار وجهه إلى الشيخ الوقور الذى كان فى تلك اللحظة مقطب الوجه وهو يصغى إلى ما يدور بينه وبين الشيخ الآخر ، وأدرك الرجل أن إبراهيم لم يعجبه ما سمع فهز رأسه وقال بصوت حزين : إن الشيخ عبد المولى يقول الحقيقة ، فالوالى منكب الآن على جمع أكبر قدر مستطاع من المال استعداداً للفرار من وجه الإنجليز الذين يرابطون فى الشمال والمماليك الذين يرابطون فى الجنوب ... إنه يعلم أنه قد بات محاصراً ، ولذلك وسط المشايخ لدى المماليك لكى يهادنوه بحجة استعداده لقتال الإنجليز ، ولكنه فى الحقيقة يريد أن يجد أمامه فسحة من الوقت يجمع فيها كل ما يستطيع من ذهب ، فإذا ما جد الجد واقترب الإنجليز من القاهرة ، يكون هو فى طريقه إلى الشام حاملا ما غنمه من الشعب ...

فقال إبراهيم وهو لا يصدق أذنيه : ولكن ... كيف اختار الشعب هذا الرجل من بين جميع الأتراك لحمايته ورعاية مصالحه ...

ـــ لقد أخطأ الشعب باختياره هذا الأفاق المخادع ... لقد خدع الشعب كما خدع الولاة والمماليك ، وليس جديداً عليه أن يتحلل من قسمه ، ويبرأ من عهده ، لقد فعلها مع الجميع .

ـــ كيف ؟ !

– عندما قدم هذا الرجل إلى مصر منذ ستة أعوام ، كان الولاة وأعوانهم ، والمماليك وزبانيتهم فى نزاع مستمر على السلطة فى البلاد كما هو الآن ... وتوالت حروبهم ومعاركهم ، وكانت ضحاياهم دائماً من المصريين ... وكانت غنائمهم وأسلابهم أموالنا ومتاجرنا ... وعقب كل حرب تحل فترة من السلم المؤقت ، ولكنه سلم بين المعسكرين فقط ... أما نحن ... الشعب ... فقد كانت سياط جباة الفريقين ترتفع فيها وتهوى على أجسادنا لنقدم لهم ما يفرضونه من ضرائب ... وكان الوالى فى ذلك الوقت هو خسرو باشا ... وكان جنده من الانكشارية القساة الذين لا خلاق لهم ولا ضمائر ... وكانوا يأتون من الفضائح والمخازى ما يقشعر له البدن ويندى له الجبين ؛ فامتلأت النفوس بالحقد ؛ وغلت الصدور بالسخط ولم تلبث القاهرة أن اشتعلت بثورة عارمة على الوالى وجنده الانكشارية ... وكان محمد على قد خلف قائده طاهر باشا فى قيادة الأرنؤود بعد أن قتل طاهر ... فتحالف مع المملوك عثمان بك البرديسى والمملوك إبراهيم بك وتعاونوا على عزل خسرو باشا ، وقد اندفع البرديسى فى تنفيذ ما أوعز به إليه محمد على فى حماسة حمقاء ، فاعتقل خسرو باشا فى القلعة ....

وكذلك انصاع له عندما عاد محمد بك الألفى من إنجلترا فتوجه على رأس جيشه إلى الألفى فشتت شمل قواته واضطره إلى الاختفاء من مسرح الصراع إلى جحر مجهول كأرنب مذعور ... ولم تثمر خدمات البرديسى فى نفس محمد على سوى الكيد والغدر ... كان محمد على يجد فيه خطراً عليه وعلى أحلامه فى الوصول إلى مقعد الولاية ، ووجد أن لا بد له من القضاء عليه بعد أن أدى دوره فى خدمته ... ودبر محمد على أمره حتى هدته حيلته إلى الوسيلة ... فطفق يعلن فى كل مناسبة أن ولى الأمر فى البلاد هو عثمان البرديسى وأنه صاحب اليد العليا فى كل شيء ...

واغتر البرديسى ، وكان أحمق ذا مطامع ، وصدق الأكذوبة الكبيرة التى يرددها محمد على وعاش قرير العين بما هو فيه من مجد موهوم ... حتى دقت الساعة ، عندما جاء جند محمد على من الأرنؤود إليه ساخطين يطالبون برواتبهم التى انقضى على موعد دفعها شهور ، فتظاهر بمشاركتهم السخط وأحالهم إلى البرديسى ومماليكه فأسقط فى يد البرديسى ، ولم يجد مفراً من أن يفرض ضريبة جديدة على الشعب ، وانتشر جباته فى ربوع البلاد وفى يمين كل منهم سوط ... وثار الشعب من جديد ، وكانت ثورته هذه المرة على الأحمق ... البرديسى ... وسارت فى دروب القاهرة وحواريها جموع الشعب وهى تهتف ساخطة بسقوط البرديسى حتى النسوة كن يسرن فى الطرقات جماعات وهن ينشدن على دقات الدفوف هتافهن الساخر الحزين : إيش تاخد من تفليسى يا برديسى ! !

ووجد الثعلب السمين أن الوقت قد حان ليسفر عن وجهه ويضرب ضربته فتظاهر باستجابته لثورة الشعب ، وأرسل جنده فحاصروا دارى البرديسى وإبراهيم بك ، وما إن تنفس صبح اليوم التالى حتى كان سائر المماليك قد فروا من القاهرة ، ناجين بأرواحهم .

وما إن وصل الشيخ إلى هذا القدر من الحديث ، حتى دخل أربعة رجال يحملون سماطاً مدوه فى منتصف القاعة ، وجاء آخرون يحملون ألوان الطعام من لحم وخبز وخضر ، ونسقوه على السماط ، وعندما انتهوا من ذلك ، قام الشيخ وخاطب الجميع بصوت مرتفع : تفضلوا يا سادة ... تفضلوا ... الغداء ...

وقام الرجال جميعاً ، ووجد إبراهيم نفسه يقوم مع القائمين ، وجلس بينهم أمام السماط .

* * *

وبعد الغداء ، رفع السماط ، ودخل أربعة من العبيد ، يحملون

الطسوت والأباريق والمناشف والصابون ، وغسل الجميع أيديهم ، وانسحب العبيد بعداتهم .

وعاد إبراهيم إلى مجلسه بجوار الشيخ ، ونظر إليه مستحثاً إياه على إكمال حديثه فابتسم هذا بمرارة وقال : إننى لا أريد أن أخيب أملك فى الوالى ، ولكنى أسرد لك الحقيقة كيلا تمنى بالخيبة بعد ما يكون الوقت قد فات ...

إن محمد على كما قلت لك ، لا يعمل لغير نفعه ، وقد ظهر لك كيف غدر بحليفيه بعد أن نال منهما ما أراد ... ووجد أنه لو أظهر للشعب زهده فى مقعد الولاية لنال المزيد من ثقته وتأييده فى الوقت المناسب ، فتوجه إلى خسرو باشا ، وفك أسره ، فصفق الناس إعجاباً ... وكان الثعلب يعلم أن أقارب طاهر باشا الذى قتله جند خسرو لن يسكتوا على ذلك ، وقد صح ما توقعه ، فقد ثاروا على الوالى الجديد وعزلوه بالقوة ومحمد على يتفرج من بعيد وكأنه لا يرى ولا يسمع ، وعاد خسرو باشا ذليلا إلى القسطنطينة وخلا مقعد الولاية من جديد ...

ووجد محمد على أن الوقت لم يحن بعد لكى يقفز إليه ، وأدرك أنه لو نصب والياً ، فلن يختلف مصيره عن مصاير من سبقوه من ولاة ، وجد أن من الأفضل أن يستمر فى سياسة تحطيم أصنام الباب العالى حتى يدمرها جميعاً ولا يبقى غيره فى الميدان ، فدعا إليه حاكم الإسكندرية التركى ، أحمد خورشيد باشا ؛ ونصبه والياً وذهب هو بجنده إلى الصعيد متعقباً المماليك ، وصفق الناس له من جديد ...

وكان خورشيد يدرك مدى خطورة محمد على وخبثه ، فأراد أن يتقى شر تدابيره ، فأتى بجند من الشام ليحلوا محل جنود الثعلب السمين ، واستصدر أمراً من السلطان بتولية محمد على على جدة ، ورفض محمد على أن يهدم خورشيد كل ما دبره وأن تفلت من بين براثنه الضيعة التى

بلا حراسة . . . مصر . . .

وإن هي إلا أيام ثلاثة حتى كان الجند الذين استقدمهم خورشيدباشا من الشام قد ارتكبوا من المخازى ما جعل القاهرة تتحول إلى بركان يقذف بالحمم . . . واندلعت الثورة ، وبحث زعماء المصريين الأمر ، وكانت الأنظار جميعاً متجهة صوب رجل واحد . . . محمد على . . .

كانت ألاعيبه قد انطلت على الناس جميعاً من عامة وعلماء . . . فقد بدا لهم كالملاك الحارس إذا ما قيس بغيره من الأتراك . . . لذلك ، لم يضيعوا وقتاً طويلا فى بحثهم عن حل للمشكلة . . . وسرعان ما استقر الرأى واتجه الزعماء إلى دار محمد على ، وعرضوا عليه منصب الولاية ، فرفع إليهم وجهه وبدت عليه دهشة مفتعلة وقال : ولكننى لا أصلح لذلك ، ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا أكابر الدولة !!!

فقال زعيمنا السيد عمر : قد اخترناك للولاية طبقاً لرغبة الشعب . . . بشروطنا .

ـ وما هي هذه الشروط ؟

ـ أن تكون خادماً أميناً لصالح الشعب ، وأن تعمل على رفاهيته وتسهر على أمنه وحريته .

ـ قبلت شروطكم ، وما كان لى أن أرفض هذا الشرف الأعظم والثقة الكريمة .

وباسم الشعب ألبسه الزعيمان الكرك وقفطان الولاية ؛ وتمت بذلك مراسيم توليته ، فسار يخب فى ثوب الولاية بين هتاف الشعب وتهليله إلى مقر الحكم ... إلى القلعة ... ولكن خورشيد أبى أن يتخلى عن مقعده لمحمد على واستكبر أن يعزله الفلاحون ، فأعلن أنه معين بمرسوم بخط السلطان الهمايونى الشريف . . . فعمل الزعماء والمشايخ على استصدار مرسوم كتب بالخط الذى يحبه خورشيد . . . خط السلطان الهمايونى

الشريف . . . وكان المرسوم يقضي بعزل خورشيد وتولية محمد على . . .
واستتب الأمر لمحمد على ، لا سيما بعد أن عضده زعماؤنا عند ما تآمر الإنجليز مع المماليك على عزله فاستعملوا سياسة الضغط على السلطان فأرسل والياً جديداً تزفه مظاهرة بحرية كبيرة وتحرسه مدافع الأسطول التركى ليجلس على مقعد محمد على . . . فكافح الزعماء حتى عاد الوالى الجديد على السفينة التى جاء بها وكافحوا حتى اضطروا السلطان إلى تثبيته فى ولاية مصر . . .

وأخيراً ... ماذا فعل محمد على ؟ ! ... لقد اعتقل الشيخ عبد الله الشرقاوى فى داره . . . اعتقل العالم الجليل وهو أحد الذين نصبوه والياً على هذا البلد . . . لماذا ؟ . . . لأنه جهر برأيه فيه . . . وطلب الكف عن تأييده لمخادعته والتوائه . . . .

وما إن وصل الشيخ إلى هذا القدر من حديثه ، حتى سمع لغط عند مدخل الدار . . . فنهض الرجل الذى كان يمثل نقيب الأشراف فى استقبال الزوار وهرع إلى الخارج وإن هى إلا لحظة حتى مر من أمام الباب جمع من الرجال يتقدمهم رجل طويل القامة مرسل اللحية يرتدى جبة سوداء وعمامة خضراء مثل السيد حسن كريت . . .

وغمغم بعض المنتظرين باسم السيد عمر مكرم . . . وابتعد اللغط ووقع الأقدام وجلس الجميع فى تحفز . . . ومضت لحظات خيل لإبراهيم أنها ساعات طوال ، واستعاد فى ذهنه ما يريد أن يفضى به إلى الرجل ، ولم يقطع عليه تفكيره سوى صوت أحد السابلة وهو يهتف قائلا : اتكالى على الله رأس مالى . . . وما لبث بعدها أن تسللت إلى أنفه رائحة بخور نفاذة ، فأدرك أنه واحد من أولئك الذين اتخذوا المباخر والبسملة والحوقلة وسيلة للرزق . . . وبعد قليل دخل مندوب السيد عمر مكرم فتعلقت به عيون الجالسين فلم يلتفت الرجل إليهم واتجه إلى إبراهيم وأشار

إليه وهو يقول : تفضل . . . السيد النقيب فى انتظارك . . .

فقفز إبراهيم على قدميه ، وتبع الرجل . . .

وعندما تناول السيد عمر مكرم الرسالة من إبراهيم نظر إليه بعينين متفحصتين . . .

ثم مضى يقرؤها . ولم يلبث أن بدت على وجهه علامات الاهتمام الشديد . . . وانتهى الزعيم من القراءة فطوى الرسالة و رفع وجهه إلى الرسول وسأله عن تفاصيل الموقف ، فاندفع هذا يروى له كل شيء بحماسة جعلت صوته يرتجف انفعالا ، وعندما انتهى الشاب من حديثه سأله عمر مكرم عن اسمه فقال :

ــ إبراهيم طاهر من جنود مراد باشا . . .

وأطرق الزعيم برأسه مفكراً . . . كانت كلمات الرسالة الرهيبة تعنى شيئاً واحداً . . . أن رشيد بل مصر كلها فى خطر ، وعلى القاهرة أن تفعل شيئاً . . . شيئاً سريعاً حاسماً فعالا . . . . ولكن ، ماذا تستطيع القاهرة أن تفعل ؟ . . . ليس أمامه سوى أمرين لا ثالث لهما . . . الاستعانة بالوالى و إعلان الجهاد ليهب الشعب للذود عن حريته . . . ولا بد من الإسراع قبل فوات الأوان . . .

وفجأة رفع الزعيم رأسه ثم صفق بكفيه مرتين ، فأتى خادم نوبى ، فأمره أن يدعو الشيخ بشيراً . . . وبعد دقيقة واحدة دخل الشيخ ذو الوجه السمح فطلب منه الزعيم أن يدعو إليه جميع المشايخ والزعماء فوراً لأمر هام وأن يصرف جميع المنتظرين بلطف لأنه لا يستطيع مقابلة أحد ذلك اليوم .

وعندما تم حضور المشايخ جميعاً، شرح لهم الزعيم الموقف فى كلمات قليلة ثم أشار إلى إبراهيم وطلب منه أن يسرد لهم التفاصيل ففعل . . .

فشكره السيد عمر وطلب منه أن يتوجه إلى بشير لأنه يرغب فى أن يقيم عنده طوال بقائه بالقاهرة وإلى حين أن يأذن له فى السفر . . .

وبعد أن غادر الشاب القاعة . . . ظل المشايخ يتشاورون فى الأمر ساعة وبعض ساعة ، وأخيراً قرروا التوجه فى الحال إلى محمد على . . .

* * *

وفى قاعة فسيحة من قاعات قلعة صلاح الدين ، تدلت من سقفها المموه بالذهب الممعن فى الارتفاع قناديل ملونة وثريات ضخمة ، توهجت بأضواء مئات الشموع الصغيرة وعكست أجزاؤها البلورية الضوء الحنون فبدت كقطع هائلة من الجوهر تسكب فى العيون مزيجاً مبهجاً من البريق الملون ، وتكشف فى جلال عن فخامة ما تحتويه القاعة من رياش ثمين ينم عن بذخ فاحش وأبهة أسبغت على المقيمين فى ذلك المكان هيبة خرافية تباعد بينهم وبين ما للبشر من خصال وطبائع . وفوق كرسى ضخم يشبه الأريكة نحت جانباه على هيئة أسدين رابضين ، وتدلى من حوله ستاران من المخمل المزركش بالقصب الذهبى ويصعد إليه بدرجات ثلاث غطيت بطنافس بديعة تربع رجل ذو لحية كثة ممشطة تحيط بوجهه فى استدارة وتتصل بشارب ه الضخم المنتفش عند جانبى فمه . . كان الرجل يلبس طربوشاً قصيراً أحمر ، يتدلى منه زر أسود غليظ ، وصداراً قرمزياً من المخمل تحليه أزرار صفراء ، وسروالا أسود واسعاً وقفطاناً أسود ، وكان قد أقام ساقه اليمنى فى حين ثنى اليسرى تحته ، وقد احتضن سيفه بيمناه . . . أما يسراه فقد كانت مشغولة بحمل غليونه الثمين الطويل المصنوع من خشب الورد الذى تحيط به أطواق دقيقة من الذهب ثبتت فيها حبات الجوهر . وكان يمسك بطرفه غلام شركسى بهى الطلعة ، كان قد ركع على ركبتيه منكباً على إذكاء النار فيه بتغطيته ويزوده بالطباق المعطر كلما أتى نهم الوالى على ما به ، بعد أن ينفثه دخاناً يتبدد فى جو القاعة . . .

وعلى مقاعد مذهبة صغيرة انتثرت فى جوانب القاعه جلس وفد المشايخ والزعماء فى انتظار ما يقول الوالى . . . ولكن محمد على لم ينبس

ببنت شفه . . وإنما مال بجنبه الأيمن ليتكئ على وسادة مكسوة بالحرير الأحمر وهو يمتص الدخان فى نهم وتتابع ، وأرسل طرفه من خلال النافذة الواسعة إلى القاهرة الزاخرة بالمآذن والقباب بعد أن فرغ المؤذنون من الدعوة إلى الصلاة وقد غلفها الغروب بعتمة متزايدة لم تفلح الأضواء الهزيلة المنبعثة من المصابيح التى علقها الأهالى على أبواب الدور والحوانيت فى أن تبدد منها شيئاً . . . وبدت المآذن فى الظلام كأنها أذرع هائلة لكائنات أسطورية امتدت نحو السماء تدعو الله أن يدمر كل من خدع هذا البلد المسكين الذى اكتوى بالأهواء والأهوال . وانتهى محمد على من تدخين غليونه فحمله الغليونجى الوسيم وانسحب فى خشوع . . .

عندئذ التفت محمد على إلى الشيوخ الجالسين أمامه . . . كانوا نفس الجمع الذى ولاه لم يغب منهم سوى واحد . . . المعتقل الشيخ عبد الله الشرقاوى . . وكاد الوالى أن يبتسم عندما تذكر الشيخ الشرقاوى ، لولا أنه أسرع فخاطب عبد الله أغا بكتاش مترجمه قائلا بالتركية :

— عبد الله أغا . . . قل لهم إننى قد بادرت بإرسال قوتين ، الأولى بقيادة أحمد الخازندار وقد سافرت فعلا للاشتراك فى القتال ، والأخرى بقيادة حسن باشا وسوف تكون على أهبة السفر إلى الإسكندرية من ساحل بولاق بعد ثلاثة أيام .

فقال السيد عمر مكرم : إن القوة التى قادها أحمد الخازندار لا تزيد على مائة من المشاة وثلثمائة من الفرسان كما جاء فى رسالة السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد إلى منذ ثلاثة أيام ، وإن القوة الإنجليزية لا يستهان بها ، لذلك جئنا اليوم إلى الصدر الأعظم مطالبين بالمزيد من الاهتمام بأمر هذه الحملة . وإن الشعب على استعداد لمعاونته فى قتال الإنجليز .

— عظيم جداً أن يبدى الشعب هذه الهمة ، ولكن القتال هو مهمة الجيوش أما الشعوب فواجبها هو تموين الجيش وتعضيده بالمال ، أما أن

يقاتل الأهالى فهذا خطأ لن أسمح بالوقوع فيه مرة أخرى ، كفانا ما حدث فى الإسكندرية ، فرفع السيد عمر مكرم حاجبيه فى دهشة وسأله قائلا :

ـ وهل حدث فى الإسكندرية ما يلام عليه الشعب ؟

ـ لست ألوم الشعب ولكننى ألوم زعيمه هناك . . . الشيخ المسيرى ، وحاكم الثغر أمين أغا . . . لقد مكنا للإنجليز من المدينة دون مقاومة جدية . . . كلا . . سوف أتولى هذا الأمر بنفسى . . .

ـ لست أشك فى أن ما بلغ أسماع أفندينا عما قام به أهالى الإسكندرية بزعامة الشيخ المسيرى مفتريات باطلة . . . لقد وصل الإنجليز إلى الإسكندرية فى أسطول مكون من اثنتين وأربعين سفينة منها عشرون سفينة ضخمة ، وطلب كبيرهم حاكم الإسكندرية والقنصل الإنجليزى فذهبا إليه ومعهم الشيخ المسيرى ، فطلب الإنجليز السماح لهم بالهبوط إلى الثغر فبدا التراخى على الحاكم التركى إلا أنه اضطر إلى أن يقول لهم نظراً لوجود الشيخ المسيرى معه إنه لن يستطيع السماح لهم بالهبوط إلا بمرسوم سلطانى ، فقالوا : لم نأت معنا بمراسيم وإنما جئنا للمحافظة على الثغر من الفرنسيين ، فإننا نتوقع أن يهاجموا مصر مرة أخرى . . . وطالبوا باحتلال الأبراج والطوابى فتصدى لهم الشيخ المسيرى ورفض أن يسمح بجندى واحد من جنودهم بالهبوط إلى البر ، وعندئذ هددوا باستعمال القوة ما لم تسلم الإسكندرية بلا مقاومة فى خلال أربع وعشرين ساعة ، وعندما انقضت المهلة كاد أمين أغا أن يسلم المدينة لولا أن وقف فى وجهه الشيخ المسيرى ومن ورائه الشعب الذى لم يتوان عن إطلاق نيران المدافع من الطوابى والأبراج على الأسطول الإنجليزى والتحم مع القوة الإنجليزية التى هبطت إلى البر عند رأس التين والعجمى ، ولو لم يقاوم الشعب هذه المقاومة الباسلة لما اضطر الإنجليز إلى ضرب المدينة بمدافع أسطولهم فهدموا جانباً منها وقتلوا الكثيرين من الأهالى وقد شهد بذلك أيضاً صديق أفندينا

المسيو دروفتى القنصل الفرنسى الذى بادر بالحرب من الإسكندرية وجاءنى بالقاهرة طالباً سحب الجالية الفرنسية للهرب معها إلى الشام ، لولا أننى طمأنته إلى أننا سوف نبسط عليهم وعلى جميع الأجانب حمايتنا . ولم نتوان عن أن نرسل إليك كاتم أسرارك ديوان أفندى بالأنباء الصحيحة . . . إن الشعب لم يقصر فى أداء واجبه نحو بلاده ويؤسفنى أن أقرر أن الجند الأتراك وحاكم الإسكندرية التركى قد أصابهم الذعر من الإنجليز ففروا من المعركة إلى دمنهور تاركين الشعب يقاتل وحده ، وقد سرت عدوى الرعب إلى حاكم دمنهور وجنده أيضاً ففروا بدورهم إلى فوة برغم مطالبة أهالى دمنهور لهم بالبقاء والمقاومة .

ولعل أفندينا قد بلغته أنباء انتصار الشعب على الإنجليز فى رشيد ... ليت أفندينا كان هنا عندما احتفل الشعب بنصره عليهم ، لقد علقوا رؤوس قتلى الإنجليز بالمئات على هراوات وساروا بها مهللين ومكبرين وهم يسوقون أمامهم أسرى الإنجليز من جند وضباط فى الطرقات والدروب يتقدم الموكب ناقرو الطبول والراقصون بالبيارق وانبعثت من خلف المشربيات زغاريد النساء تحيى موكب النصر وهو يسير من ساحل بولاق إلى باب الشعرية فباب النصر مخترقاً الغورية ثم باب المتولى فبركة الأزبكية حيث غرسوا الهراوات فى وسطها صفين متقابلين. ودوت المدافع من القلعة وأطلقت الصواريخ من الأزبكية ، ورددت حوارى القاهرة ودروبها نداء الحرب والجهاد . . . لقد قام الشعب بالكثير وما زال يستطيع الكثير . . .

كان محمد على ينصت وهو مطرق رأسه . . . وأخيراً رفع الوالى رأسه ثم قال : ما زلت عند رأيى من أن واجب الجيش أن يحارب وأن على الشعب تعضيده بالمال فقط ، إنكم تعلمون أن الذى عاقنى عن المبادرة للقاء الإنجليز بنفسى هم أولئك المماليك الذين أثاروا القلاقل فى الصعيد ، وإنى أرجو أن تسير مفاوضات المشايخ للصلح معهم على

ما يرام حتى نفرغ للعدو الجديد . . . إن كل ما أطلبه منكم جميعاً ، هو أن تثقوا بي وأن تدعوا لي هذا الأمر . . . ثم نهض الوالي ، وكان ذلك إيذاناً لهم بالانصراف فهبوا واقفين واستأذنوا في الانصراف .

وقبل أن يصل السيد عمر مكرم إلى باب القاعة الكبير دوى صوت الوالي منادياً :

ــ عمر أفندي . . .

فالتفت السيد عمر إلى الوالي متسائلا ، فهبط هذه الدرجات الثلاث والتقى بالزعيم المصري في وسط القاعة الكبيرة .

وقال محمد علي : إن إعداد جيش للقتال أمر يحتاج إلى نفقات وإن ما يؤخر حسن باشا وجيشه عن السفر إلى الإسكندرية هو هذا الأمر .

وصمت الوالي قليلا ثم قال بصوت كالهمس : إنني بحاجة إلى ألف كيس . . . قدرها على من تشاء من الأهالي والتجار وتول جمعها بنفسك ، و . . . عجل . . .

وخرج نقيب الأشراف من لدن الوالي وهو يغمغم حانقاً : لقد عاد التركي إلى المطالبة بثمن القتال مرة أخرى !

إن رشيد في خطر ولن يسعفها هذا الوالي المتراخي . . . إن تحرك جيشه معلق بكثير من المال والوقت والصبر . . . إنه يطلب ألف كيس . . . ألف كيس عليه أن يجمعها بنفسه ، فلن يثق الشعب في أن هذا المال سوف ينفق من أجل مصر لو أن غيره تولى جمعها . . . سوف يجمعها له ، ولكنه لن يعتمد على هذا التركي الجشع كلية . . .

وتذكر تلك الليالي التي كان يحضر فيها محمد علي إلى داره متسللا يدق بابه في تردد ويرجو مقابلته ، ويظل يتحدث عن استعداده للتفاني في خدمة مصر وأهلها ويقسم بالأيمان المغلظة أنه سوف لا يغمد سيفه حتى تستقر الأمور في البلاد ويتم القضاء على المماليك ، وينتشر الأمن

والعدل ، وتقام الأحكام والشرائع ، وألا يأتى أمراً إلا بمشورة زعماء الشعب : فإن خالف هذه الشروط عزلوه وأخرجوه . . فصدقه ، وعمل على إقناع الزعماء بأن محمد على هو الرجل الوحيد الذى يمكنهم أن يتفاهموا معه وأنه الوحيد الذى يستطيع القضاء على سلطان المماليك ، فهو من جنسهم وقادر على فهم حيلهم وطرقهم فى الكيد والقتال ، ومن ورائه جيش من الأرنؤود الأشداء . . . ووافق الزعماء . . . وترددت النداءات بين طرقات القاهرة وأزقتها بمناصرة محمد على والخروج لمقاتلة المماليك وزعيمهم محمد الألفى ؛ فتكتل الشعب وراءه وحمل السلاح ، واشترك فى القتال . حتى اضطر الألفى إلى الفرار إلى البحيرة ولكن الشعب فى دمنهور أبى أن يسمح للألفى بدخول المدينة ، فحاصرها عاماً بأكمله وسد خليج الأشرفية ومنع الماء عن البحيرة والإسكندرية . . ولكن الشعب لم يسلم حتى قتل الألفى اليأس ، فمات وهو يلعن محمد على والمماليك الذين انضموا إليه وانخدعوا بوعوده المعسولة وهو يقول : ياالضيعتك يا مصرا . . . انظرى إلى أمرائك وهم حولك مشتتون متناحرون . . . استوطنك أجلاف الترك واليهود وأراذل الأرنؤود وأصبحوا يأخذون خراجك ويحاربون أمرائك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك .

وتمنى عمر مكرم لو أنه كان قد أخذ برأى الشيخ عبد الله الشرقاوى الذى وقف معارضاً تأييد محمد على بعد أن بدت منه دلائل الخداع والتراخى فى الوقوف إلى جانب الشعب ، عندما اجتمع الزعماء فى دار الشيخ الشرقاوى بحارة كتامة ... ولكنه لم يأخذ باعتراضه وحمل بقية الزعماء على كتابة عريضة إلى السلطان لتثبيت محمد على فى ولاية مصر . . .

وبعد كل ذلك الكفاح والتدبير من أجل توطيد سلطان هذا الرجل ، يكشر الوغد عن أنيابه فيبدأ باعتقال الشيخ الشرقاوى فى داره ، ثم يحاول أن يعقر اليد التى امتدت إليه بالإحسان . . . فقد حاول الثعلب التركى

أن يقضى عليه سياسياً . . . يقضى على ولى نعمته . . . كما فعل بالبرديسى وبإبراهيم بك ، عندما تظاهر بإزماعه السفر على رأس جيشه لمقاتلة الألفى وعهد إليه بحكم مصر نيابة عنه لكى يورطه فى المشاكل القائمة ويلصق باسمه ما كان الأتراك يرتكبونه من أفعال همجية ، فاعتذر عن القبول . . . ولم يكن محمد على قد أرسل جيشه إلى أبعد من . . . بولاق !!

وتذكر السيد عمر عندما جاء الإنجليز فبعث إليه بديوان أفندى ليستحثه على العودة إلى القاهرة للوقوف فى وجه العدو الجديد ، ومضت أيام دون أن يعود الرجل الذى طالما تملقه وأقسم له بألا يغمد سيفه قبل أن يقضى على أعداء مصر جميعاً ! . . . وأخيراً . . . أخيراً جداً تحرك الوالى فى تباطؤ شديد عائداً إلى القاهرة ولكن عن طريق الضفة الشرقية للنيل لكى يستطيع أن يلوذ بالفرار إلى الشام عندما تلوح له بادرة أى خطر يتهدد حياته . . . ولم يخرج عن طوقه حيال المحنة التى أحاقت بالبلاد التى رفعته إلى مقعد الولاية سوى أن يبعث ببضع مئات من الجند بقيادة تركى رقيع أرعن ، لم يتورع عن نهب الفلاحين وهو فى طريقه إلى ميدان القتال بعد أن انتهت المعركة !! . . .

ليته عضد الشرقاوى . . . ليته استمع إليه . . . ليته ما وثق بهذا الكلب العقور . هذا المرتزق الذى يطالب بالأجر قبل أداء الخدمة . . . كلا . . . إنه لن يعتمد على أحد غير الشعب . . . الشعب الذى نصر محمد على وهزم الألفى ، والذى قطع رؤوس الإنجليز ، هو الذى سوف يستجيب لنداء رشيد ويرد عنها القراصنة . . .

الفصل الثانى عشر

انعقدت سحب الدخان المنبعثة من قمم النارجيلات المذهبة السامقة فى سماء القاعة وبدا أمراء المماليك فى ثيابهم المزركشة الفاخرة وعماماتهم الصغيرة المحلاة بالجواهر وقد اتكأوا على الوسائد المتناثرة فوق الأرائك المنخفضة وكأنهم فى مجلس شراب وطرب رغم ذلك الحديث الجاد الذى كان يترجمه لهم مصطفى أفندى كتخدا قاضى العسكر . . .

كانوا جميعاً قد اجتمعوا لينصتوا إلى الوسطاء المصريين بينهم وبين غريمهم المخادع محمد على الذى عرض عليهم الصلح والكف عن القتال والاستجابة إلى مطالبهم فأبوا أن ينخدعوا بقوله ورفضوا أن ينصتوا إلى شريف أغا رسول الوالى إليهم وطلبوا حضور الزعماء المصريين والمشايخ الذين يثقون فى كلمتهم وفى قدرتهم على ضمان وفاء غريمهم بوعوده ، ولكن المحنة التى كانت تجتازها البلاد حالت دون حضور السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ، فأناب هؤلاء عنهم الشيخ سليمان الفيومى والشيخ إبراهيم السجينى والسيد محمد الدواخلى الذين جلسوا متجاورين أمام أمراء المماليك يعرضون رغبة محمد على فى الصلح وإنهاء القتال .

وعندما أفضى إليهم الشيخ الفيومى بعرض الوالى قال عثمان بك يوسف بالتركية وهو يشير بمبسم نارجيلته فى حدة :

– لقد أتخمنا محمد على بوعوده الكاذبة . . . إن قولة لم تنجب من هو أشد إفكاً من هذا الرجل . . .

وقال عثمان بك حسن وهو يضع بتؤدة فنجان القرفة التى فرغ من احتسائها :

ـــ إن الموقف قد تغير الآن ، والظروف فى صالحنا وقد حانت نهاية هذا الدخيل ، ولن نفلت الفرصة . . .

قال ذلك ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية فنشرها وشرع يقرأ منها :
لقد جئنا إلى بلادكم بدعوة من المرحوم محمد بك الألفى لتقديم العون له ولكم، فوجدناه قد مات ، وإننا ما زلنا عند وعدنا ، وإنكم لن تجدوا فرصة خيراً من هذه لتحقيق أغراضكم وتوطيد سلطانكم ، وإن أى تلكؤ من جانبكم سوف لا يندم عليه أحد سواكم . . . وطوى المملوك الرسالة والتفت إلى الشيوخ المصريين وقال :

ـــ إننا لا ننوى مطلقاً أن نندم على شىء ، لئن كان محمد بك الألفى قد مات ، إن حقوقنا لم تمت ولن نسمح لمحمد على أن يهدرها .

فقال الشيخ الفيومى : لو كان الإنجليز جادين فى معاونتكم لما تأخروا عن الحضور كل ذلك الوقت ، إنهم قوم يعملون لمصالحهم الشخصية ويتوسلون إلى ذلك بشتى الوسائل ، وهم يريدون تسخيركم لمصالحهم فلا تغتروا بما يقولونه لكم . . .

فتصدى مملوك شاب ذو ملامح حادة ، كان يجلس فى أحد أركان القاعة دون أن يشارك إخوانه فى التدخين ، للشيخ الفيومى ، وأخرج من جيبه رسالة الإنجليز إليه ، وقال :

ـــ إن هذه الرسالة تتضمن الأسباب الحقيقية التى حالت دون وصول العون الإنجليزى إلينا ، ففيها يقول الجنرال فريزر :

« إن أسباب تأخرنا عن الحضور إلى مصر هو ما كان قائماً بيننا وبين الدولة العثمانية من علاقات الود والصداقة . وعندما اعتدت قوات الدولة العثمانية على حلفائنا الروس أصبحنا فى حل من الحضور إلى مصر منتهزين أول فرصة سنحت لنا. وإننا ـــ وإن كنا قد وجدنا أن محمد بك الألفى قد مات ـــ لا نجد سبباً يسوغ لنا الرجوع عن مصر دون

إتمام ما جئنا لأجله » .

فقال الشيخ السجيني : أرجو أن تكون قد فهمت من روح هذه الرسالة أن الإنجليز مصرون على احتلال البلاد سواء قمتم بمعاونتهم أم لم تقوموا ، وهذا يبين لكم بوضوح أن الإنجليز لم يأتوا لكي يعيدوا إليكم حقوقاً أهدرت ، ولكن لكي يبسطوا سيطرتهم على البلاد ، وأنتم في هذا الأمر وسيلة يستعينون بها لقضاء مآربهم كما وضح لكم الشيخ سليمان . عودوا إلى رشدكم ودعوكم من الوهم الذى تعيشون فيه .

فقال إبراهيم بك ، وكان أكبر المماليك سناً ، بصوت كالخوار :

— هل لكم أن تبينوا لنا الغرض من الصلح الذى يعرضه الباشا ؟

— الغرض هو إنهاء هذه الحرب التى لا فائدة منها وتوحيد الكلمة وضم الصفوف لمواجهة عدو البلاد ، ولا يخفى عليكم أن الإنجليز قد خاصموا السلطان وأغاروا على مصر ، فاحتلوا الإسكندرية وهاجموا رشيد وهم يعدون الآن لغزو البلاد جميعها كما فعل الفرنسيون من قبل .

فقال شاهين بك الألفى فى عناد وإصرار : لقد جاء الإنجليز بدعوة من الألفى بك الكبير لنصرتنا ومساعدتنا ، فكيف يليق بنا أن نتخلى عنهم بعد كل المشاق التى عانوها لكى يأتوا إلينا ؟

فقال السيد محمد الدواخلى بصوت فيه رنة الغضب : لا تصدقوا الإنجليز فيما يدعون فإنهم إذا ملكوا البلاد فلن يبقوا على سلطة لأحد ولن يقبلوا أن يشاركهم فيها إنسان ولا تنسوا أنهم من غير ديننا ولا ملتنا ، ولا ينبغى الانتصار بهم على المسلمين .

وقال الشيخ السجينى مخاطباً كبار المماليك : ولا تنسوا أنكم مسلمون ، تربيتم فى حجور الفقهاء وبين أظهر العلماء وتعلمتم الشرائع وأقمتم الصلاة وقمتم بالحج والجهاد فهل يليق بكم أن تقعوا فى جهالة كهذه ؟

فقال شاهين بك المرادى : إن محمد علي غادر لا يؤتمن ولا يحفظ عهده . وفتح ياسين بك فمه الواسع لأول مرة وقال : لقد حاول أن يغدر بالسيد عمر مكرم نفسه برغم أياديه البيضاء عليه ، واعتقل الشيخ الشرقاوى ولم يطلق سراحه إلا تحت ضغط الزعماء ، والعلماء ، فهل نأتمنه بعد ذلك على أنفسنا ؟

وقال شاهين بك الألفى والحدة لم تفارقه : إن كان يصالحنا على أن يقطعنا البلاد والأرض فها هى ذى البلاد فى أيدينا وقد عمها الخراب من الحروب وقد انهدمت دورنا وتشتت شملنا ولم يبق لدينا ما نأسف عليه أو نحتمل المذلة من أجله وقد مات إخوان لنا كثيرون وخير لنا أن نستمر فى القتال وألا نركن لوعد أو نثق فى عهد ، حتى نفنى عن آخرنا .

وقبل أن يكمل الألفى الصغير كلامه ، ارتفع صوت الشيخ الفيومى مقاطعاً وقال فى حزم :

ـ إن من يفعل ذلك ولا يرضخ للصلح سوف نضطر بصفتنا علماء المسلمين وشيوخهم أن نحكم بردته عن الإسلام وكفره بدين الله ، وأن نبيح دمه ، لأن كل من يحاول إضعاف القوة التى تحارب الإنجليز يعتبر إنجليزياً يعامل بمثل ما يعاملون به .

ثم نهض الشيخ الفيومى وقال : سوف نترككم الآن لتتشاوروا فى أمركم وسنعود إليكم بعد صلاة العصر لنستمع إلى قراركم النهائى واعلموا أن من لم يكن معنا عددناه علينا .

وعندما صار المماليك وحدهم دوت القاعة بأصواتهم وقد اختلط بعضها ببعض وامتزجت الحدة بالاتئاد ، ولم تخفت حدة الجدال قبل أن يرفع عثمان بك يوسف صوته قائلا وهو يلمس أعلى صدره بكفيه :

ـ لقد ظللت محايداً منذ زمن طويل ، وإننى مسلم جاهدت وقاتلت الفرنسيين ولا أحب أن أختم أعمالى باللجوء إلى الإنجليز لأنتصر

بهم على المصريين .

فقال مراد بك الألفى بصوت جعله الغضب رثيعاً : ان هذا هروب من المعركة . . . إن الله لم يأمرنا بأن نسكت على ضياع حقوقنا وتشريد أبنائنا . . . كيف استطعتم أن تحتملوا سماع هذه الترهات التى يتحدث عنها هؤلاء المشايخ . . . إن العثمانيين كانوا يتمنون أن يملكوا مصر منذ أحقاب طويلة ، مضى الزمن والمماليك يقهرونهم ويغلبونهم على أمرهم ، ولم يظفروا منا بغير الطاعة الظاهرة ولعلكم لم تنسوا كيف امتنعنا عن دفع الخراج ولم نمتثل لأوامرهم ، وقد أوغر ذلك صدورهم علينا فوبخوا البلاد وملكوها على هذه الصورة وتآمروا علينا ولن يروق لهذا الأفاق ساكن القلعة أن يعود إلى بلاده بعدما ذاق خيرها ، فدبروا أمركم وتيقظوا من غفلتكم . . .

وهز ياسين بك رأسه موافقاً وكذلك فعل شاهين بك المرادى .

وقال عثمان بك حسن محتجاً : هذا من وساوسك وأوهامك .

ولكن شاهين المرادى سأله قائلا : ما الذى تراه ؟

فقال الألفى الصغير وهو يمسك بقبضة سيفه : أرى أن نوحد جيوشنا وأن نسير شمالا حتى الجيزة حيث ننصب خيامنا وأن ننتظر وصول الإنجليز لنجعلهم واسطة بيننا وبين الوالى ونعقد الصلح عندئذ بشروطنا نحن بضمان الإنجليز وألا نعبر النيل إلى الضفة الشرقية ولا ندخل القاهرة حتى يخرج الأتراك منها ويعودوا إلى بلادهم ولا يبقى منهم إلا من يتقلد الولاية والدفترداية ومثل ذلك . . .

فتساءل عثمان بك يوسف قائلا : كيف نضع أيدينا فى أيدى الإنجليز وهم أعداء البلاد فيحكم العلماء بردتنا وخيانتنا لدولة الإسلام ؟ !

فقال شاهين الألفى وهو يقلب كفيه مستنكراً قول عثمان بك : أما الاستنكاف من الالتجاء إلى الإنجليز فإن العثمانيين لم يستنكفوا من ذلك واستعانوا بهم من قبل فى طرد الفرنسيين من البلاد وكانت تلك مساعدة

حرب ، أما ما أطالبكم به الآن فهو أن نستعين بالإنجليز للتوسط لدى العثمانيين وكفالة الشروط ،وشتان بين مساعدة حرب و وساطة سلم . . . أما أن ننتظر حتى يقع من جانب الأتراك ما يستوجب الاستعانة بالإنجليز فهذا ما لا أوافق عليه ، فقد يتعذر عندئذ تدارك الأمر .

فنهض إبراهيم بك وتهيأ للانصراف ثم قال فى ملل : إننى أقبل أى شرط يعيدنى إلى دارى لأقضى ما تبقى من عمرى مع عيالى تحت إمارة أى إنسان من عشيرتنا فهو عندى أفضل من هذا التشرد .

فنهض خلفه عثمان بك حسن وهو يقول : إنى معك فى هذا يا إبراهيم بك ، وفتح ياسين بك فمه الواسع فبدت أسنانه العريضة وقال :

ــ أما أنا فعلى استعداد لتوقيع أى شروط مقابل أربعمائة كيس .

وتتابع المماليك كل يبدى رغبته فى الصلح ومله من القتال .

وعندما عاد وفد الشيوخ المصريين ، كان المماليك قد جلسوا فى أماكنهم ليبلغوا قرارهم بالكف عن القتال ، وكانت علامات الطمأنينة والثقة بادية فى وجوه الجميع ما عدا وجه مملوك شاب حاد التقاطيع ، فقد وقع شروط الصلح فى عصبية كادت تحطم القلم . وبعد أن تم جمع التوقيعات بلحظات ، كان فارسان يسابقان الريح بجواديهما ليزفا البشرى إلى القاهرة . . .

الفصل الثالث عشر

ـ تجلدى يا أم إبراهيم، واذكرى قول الله سبحانه . « والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون » . . . لقد ذهب ولدك إلى عالم البقاء بطلا شهيداً من أجل الوطن ، فأنعم بها من شهادة . . .

فأجابت الأم بنهنهة حزينة ثم رفعت إليه عينين تسحان بالدمع الغزير ، ولم تلبث أن انفجرت باكية وهى تغطى وجهها بيديها واهتز رأسها يميناً وشمالا فى لوعة حارقة.

ومن بين شهيق البكاء وزفرات اللوعة ، سمعها السيد حسن كريت تقول بصوت متحشرج : لم يعش ليهنأ بشبابه . . . ذهبت عروسه فلحق بها متعجلا . . .

ـ هذا قضاء الله يا أم إبراهيم ولا راد لقضائه ، وعهدى بك الإيمان بالله والرضا بقضائه . . . لقد خلقنا الله لذكره وطاعته والدفاع عما أمر به والنهى عما نهى عنه ، وقد استشهد محسن فى سبيل الحق الذى قدسه الله وتسمى به سبحانه ، فهنيئاً له شهادته ، وصبراً على ما قضى به الله . . .

فقالت الأم بصوت يخنقه البكاء وبدنها يرتج بالنشيج : لقد كان يحب الحياة يا سيد حسن . . . كان يضحك لها ويستزيد منها . . كنت أجد فى قربه منى عوضاً عن غياب أخيه . . . كنت أسمع خطواته كلما عاد إلى الدار فى المساء . . . وأنصت إلى خفق حذائه عندما يخفف الوطء كيلا يوقظ أحداً عندما يعود متأخراً . . . كان يتوقف لحظة أمام بابى وكأنه يريد أن يدخل على ليقبل جبينى وأنا نائمة كما كان يفعل كلما كان يرانى مستيقظة . . . لن أرى محسناً بعد الآن ! . . . لن يقبل جبينى . . . لن يقف ببابى . . .

وانخرطت الأم الحزينة من جديد فى نهنهة متقطعة كالأنين . . . وقام طاهر بك من مقعده وقد بدا على وجهه ضعف ما كان يبدو عليه من شيخوخة ، فربت على كتف الأم وقال :

— كفى يا أم إبراهيم . . . كفاك بكاء . . . إنه حى يرزق فى جنات الله . . . « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . . . هذا قول الله . . . أين إيمانك ؟ . . . كفاك بكاء . . . ليس هكذا يبكى الشهداء . . . قومى معى إلى فراشك . . .

فمدت الأم يدها وأمسكت بكم زوجها وقالت بشك بدا واضحاً فى عينيها :

— أصدقونى القول . . . هل مات إبراهيم أيضاً ؟ . . . هل قتله الإنجليز يا طاهر ؟ . . . خبرنى بربك يا سيد حسن . . . أين إبراهيم ؟

فقال السيد حسن مؤكداً : لقد بعث إلى أول أمس البطل الشهيد مراد باشا طالباً إيفاد إبراهيم بنفسه إلى القاهرة لاستعجال النجدة وشرح الموقف لزعماء البلاد ، وقد حمل إبراهيم الرسالة وتوجه على الفور إلى القاهرة وقدرت له النجاة من هذا الهجوم الإنجليزى الغادر . . . ثقى أن ما أقوله هو عين الصدق . . . سوف يعود إبراهيم مع النجدة عما قريب وسوف يثأر من القراصنة لجميع من استشهدوا . . فرفعت أم إبراهيم وجهها نحو السقف وبسطت كفيها فى ضراعة وقالت بصوت مبحوح ودموعها تنحدر فى خطين لامعين فوق وجنتيها :

— يا منتقم يا جبار . . . أنت على كل ظالم . . . أنت على كل ظالم يا رب . . اللهم انتقم لى من الإنجليز . . . اللهم أثكل قلوب أمهاتهم . . . اللهم أذقهم الحسرة والندم . . . أنت على كل ظالم يا رب . . .

وقاد طاهر بك زوجته إلى غرفتها برفق ، ثم عاد إلى السيد حسن كريت

الذى كان لا يزال واقفاً فى مكانه وقد أطرق إلى الأرض فى شرود ...
وسأله طاهر بك متردداً بصوت خائر :

ـ هل . . . هل قتل جميع المصريين ؟ . . . جميعهم ؟

ـ أكذبك القول لو قلت لا أو نعم : . . إنما سمعت ممن نجا منهم أن الإنجليز انقضوا على جيش مراد باشا من كل جانب بعد أن سحقوا معسكره بنيران مدافعهم ، فقتل كثيرون وأسر آخرون وأمكن بضعة وخمسين رجلا أن يعبروا النيل إلى الضفة الشرقية سباحة بعد أن وجدوا ألا جدوى فى المقاومة ... وقد ذكر لى بعضهم ممن كانوا يقاتلون بجانب محسن أنه قاتل كما يقاتل الأبطال واستشهد كما يستشهدون . . . لقد افتدى قائده بحياته ، إذ تلقى بصدره رصاصة غادرة كانت مصوبة نحو مراد باشا وسقط وهو يصرخ فى الرجال . . . أن اصمدوا وقاتلوا من أجل مصر . . .

وصمت الرجل قليلا ثم استطرد يقول بصوته العميق :

ـ وعندما فرغ القراصنة من ذلك ، اقتحموا الحماد فاحتلوها وكذلك فعلوا بقريتى كوم الأفراح وأبى مندور ، وبذلك قطعوا كل اتصال بين رشيد وما حولها ، وإن أخشى ما أخشاه هو عبورهم النيل إلى الضفة الشرقية ، فيسدوا المنفذ الوحيد إلى رشيد فيتعذر علينا الاتصال بالقاهرة أو بغيرها . . .

واستطرد السيد حسن كريت يقول فى همهمة خافتة كمن يحدث نفسه :

ـ يجب أن ننبه القادمين إلى ما حدث كيلا يباغتهم الإنجليز أو ينصبوا لهم كميناً . . . ثم ارتفع صوت الرجل وهو يقول :

ـ يجب أن أنصرف الآن ، فعلينا أن نوفد رسولا إلى القاهرة عند هبوط الظلام . . .

وقبل أن يفتح طاهر بك فمه ليتكلم ، دوى صوت عميق من أقصى المكان يقول :

– إنني على استعداد للقيام بهذه المهمة يا سيد حسن . . .

وبوغت الرجلان والتفتا نحو مصدر الصوت فشاهدا سلامة وقد ارتدى ثياب الركوب . . . وعندئذ قال طاهر بك مستنكراً : أنت ؟ ! ... تسافر وأنت لم تسترد بعض ما فقدت من عافية ! . . .

– إنني فى خير حال .

والتفت إلى السيد حسن كريت وقال بحزم : تحت أمرك يا سيد حسن . .

فقال السيد حسن كريت : إننى لن أجد خيراً منك لأداء الرسالة ، ولكنك كما قال طاهر بك . . .

فقال العملاق دون أن يمكنه من إتمام الحديث : لقد استرددت عافيتى وإننى مصر على القيام بهذه المهمة لعلنى أعوض بالقيام بها ما فاتنى من قتال وأنا راقد فى الفراش كامرأة هجرها زوجها . . .

– لا تندم على ما فاتك من قتال ، فإننا لم نخض المعركة الحقيقية بعد وقد ادخرتك الأقدار لمعركة النصر بمشيئة الله . . .

– لن يهدأ بالى قبل أن أذبح عشرة من القراصنة مقابل كل شهيد من رجالنا . . .

وضم الرجل قبضته ناقماً واستطرد يقول من بين أسنانه : سوف أسفك دماءهم النجسة ، أما دماؤنا فلن تضيع هدراً أبداً . . . أبداً . . .

– إذن ، هيا بنا إلى السلانكلى . . .

وعندما خرج سلامة إلى الطريق ، نظر إلى ما حوله بفضول وكأنه يشاهد رشيد للمرة الأولى . . . ونفذت إلى أنفه رائحة عطنة كانت تنبعث من جوف الخنادق الواسعة الحديثة الحفر . . . وعندما رأى منظر الرجال

الكامنين خلف المتاريس ، والمتربصين فوق الجدران وقد ثبت كل منهم أصبعه فوق زناد بندقيته فى يقظة وتحفز ، ثارت فى نفسه روح القتال ، فامتدت يده تتلمس غدارته دون قصد أو شعور . . .

وتلقى سلامة الرسالة من القائد التركى وظل يرددها فى ذهنه طوال ساعات انتظاره حلول الظلام حتى حفظها عن ظهر قلب . . . كانت حثاً للوالى على سرعة نجدة رشيد . . .

وجاء المساء ، وحلك الظلام ، فعبر سلامة النيل ومعه حصانه فى المعدية القديمة التى كان صديقه عوض الله يفخر بها حتى إنه سماها (عروس البحر) . . . وابتسم سلامة عندما تذكر عوض الله العجوز عندما تثور ثائرته كلما كان يلومه مداعباً إياه على زواجه من « زهرة » الصبية الصغيرة التى فى عمر حفيدته . . .

وعندما اقتربت المعدية من الضفة الشرقية ، تهيأ سلامة ليلقى بالحبل الغليظ على الوتد الحديدى الكبير ... وبغتة ، انبعث ومض خاطف تبعه دوى مروع ، فالتفت وراءه . . . وراعه تتابع الومضات البرتقالية والانفجارات الهائلة . . . وأدرك أن الإنجليز قد بدءوا يدقون رشيد بمدافعهم ، فانطلقت من بين أسنانه غمغمة ناقمة ثم أسرع بإخراج حصانه من المعدية وقفز فوق ظهره وانطلق نحو الجنوب . . . إلى القاهرة . . .

الفصل الرابع عشر

أحس إبراهيم بحيوية دافقة ونشوة الشعور بالقوة وهو يخترق جموع الرجال الذين كان كل منهم يكاد يشتعل بالحركة والحماسة .

كانوا خليطاً من طوائف الشعب المختلفة من تجار وصناع وفلاحين وباعة ومجاورين ذوى سحن مختلفة وثياب وأزياء متباينة ، معظمهم عراة الرؤوس حفاة الأقدام وجميعهم قد شمروا عن سواعدهم السمراء ، وقد انكبوا يصنعون شيئاً كاد أن يكتمل ويسد مدخل القاهرة عند ساحل بولاق بمتاريس هائلة .

وقفزت إلى ذهن إبراهيم ذكرى ذلك اليوم التاريخى الذى انقضى منذ أربعة أيام فقط ، عندما أصدر الزعيم عمر مكرم والمشايخ والعلماء نداءاتهم إلى الشعب لكى يهب إلى ملاقاة الإنجليز دفاعاً عن الوطن والمقدسات ، وأن يهبوا الوطن كل ما يستطيعون من مال وسلاح لاستخدامه فى مواجهة الخطر الداهم ، فتقاطرت جماعات الشعب من جميع الطوائف إلى دار السيد عمر مكرم والجامع الأزهر وهى تهتف بحياة الوطن والحرية والجهاد فى سبيل الله ومصر ، حيث ألقى عليهم الزعماء خطبهم الملتهبة ونداءاتهم الموجهة ، فأخذت كل جماعة تتجه نحو ساحل بولاق لبناء المتاريس والتربص للإنجليز .

وفى الطريق ، أصبحت الجماعات جموعاً ، ثم التقت الجموع واندمجت فصارت خضماً بشرياً هائلا ، يمور بالحماسة ، ويقوده الإيمان .

وسرعان ما شيدت المتاريس وحفرت الخنادق وربض الرجال فى مواقعهم ، وقسمت الآلاف إلى مجموعات تولى آخرون تدريبهم على أساليب القتال .

وأصبح ساحل بولاق معسكراً هائلا ، انتشرت فيه الخيام ، تدوى فى سمائه طلقات التدريب مختلطة بصيحات التكبير .

وعند الحد الجنوبى للمعسكر ، نصبت خيمة كبيرة، ظل إبراهيم يقترب منها حتى وصل إلى مدخلها فوقف ثم ألقى السلام دون أن يتحرك أو يرى من بداخلها . . . وما إن سمع صوتاً ينبعث من الداخل يرد السلام ويدعوه للدخول ، حتى تهلل وجهه ثم أحنى رأسه ونفذ إلى الخيمة حيث كان الزعيم عمر مكرم جالساً مع اثنين من أجلة العلماء .

وما إن رأى الزعيم إبراهيم حتى ابتدره بقوله :

ـ جئت فى وقتك . . . اجلس . . .

ففعل إبراهيم وظل صامتاً .

واستطرد الزعيم قائلا وقد بدا الجد فى قسمات وجهه ونبرات صوته :

ـ لقد فرغ الرجال اليوم من كل ما عهد إليهم فيه ، كما أوشك تدريبهم أن يتم وقد بلغنى أنهم سيفرغون منه فى خلال يومين يكونون بعدهما أهلا للقاء الإنجليز فماذا ترى ؟ . . .

ـ أن نسير بالرجال فور استعدادهم شمالا بحذاء الضفة الغربية حتى نصل إلى جنوبى الحماد ، وأن نعمل على أن يكون وصولنا ليلا ، ثم يقسم الرجال إلى فريقين كبيرين، يتجه أحدهما شمالا متجنباً مواقع الإنجليز حتى يصل إلى الملاحات ، ويطوق الفريق الآخر الإنجليز من الجنوب والغرب . . . وفى الساعة التى يتفق عليها . . . يبدأ هجومنا من الشمال والجنوب والغرب ... أما ناحية الشرق . . . فأعماق النيل كفيلة بها .

فهز أحد الضيفين رأسه موافقاً وهتف الآخر وقد بهرته الخطة :

ـ هذا رائع . . . نعم الرأى !

وقال السيد عمر : بورك فيك يا إبراهيم ... موعدنا اليوم بعد صلاة العصر لمناقشة التفاصيل . . . فى دارى . . .

وانصرف إبراهيم من لدن الزعيم ورأسه يزدحم بصور غامضة للأحداث القادمة . واتجه إلى خان « دار السعادة » المجاور لبيت القاضي ، ليتناول غداءه ، ثم يصلي فريضة الظهر في مسجد الحسين القريب ويظل قابعاً به إلى أن يفرغ من صلاة العصر ، وبعد ذلك يتجه من المسجد إلى دار السيد عمر .

وكان خان دار السعادة بناء حجرياً قديماً من طابقين ، تزين واجهته مشربيات كثيرة تطل على الرائي من الطابق الثاني ، وقد سدت نوافذ الطابق الأول بقضبان متقاطعة من الحديد في زركشة عربية بديعة ، وانفرج بابه الواسع الذي لا يغلق أبداً عن قاعة واسعة طويلة ، أقرب ما تكون إلى الدهليز منها إلى القاعة ، وقد صفت حول جدرانها أرائك قديمة يبدو عليها آثار عز غابر، وتتصدرها مرآة هائلة ذات إطار كاد الزمن أن يمحو طلاءه الذهبي، وكانت صفحتها العريضة تعكس صورة المكان من السقف المزركش الذي تتدلى منه ستة مصابيح زيتية إلى البلاط الضخم العاري الذي تآكلت حوافه ، فتضاعف لعين الداخل اتساع القاعة .

وكان ضجيج الشارع الضيق المزدحم بالمارة والباعة والمجاذيب الذين كانوا يفترشون عتبة الخان وتحت نوافذه يصفع آذان الجالسين بالداخل دون هوادة طوال اليوم . . . وكثيراً ما كانت توشيه صيحات الدراويش وهتافاتهم الغامضة التي تبدو لغيرهم لا معنى لها . . .

اقترب إبراهيم من الخان ، فشاهد اثنين من هؤلاء الدراويش رجلا وامرأة وقد أمسك كل منهما بتلابيب الآخر، وهما يتنابذان بألقاب جعلت منهما محوراً لسخرية زملائهما الذين كانوا يجلسون في تراخ وبلادة على جانبي الطريق .

وسمع إبراهيم المرأة تقول وهي تحاول أن تخلص خمارها الأخضر من قبضة الدرويش التركي :

— دع خماري يابن المرأة . . . دعه . . .

فصرخ فيها الدرويش وأنفه يرتعد من الغضب برطانة مضحكة :
— سوس . . هات الفلوس ... أنت لص ... أنت انهب ... اسرق .. الشيخ أعطى نقود لحظرتى أنا . . . أنا . . .
. فضحك الدراويش لمخاطبته المرأة بصيغة المذكر وعنجهيته المضحكة وارتفع من بينهم صوت ساخر لدرويش كان يدخن فى جوزة وهو جالس على إحدى درجات « سبيل » مقابل للخان :
— أعطى رزقك لسيدك التركى ابن الأمراء يا بنت يا خضرة . . .
ثم أضاف مقلداً التركى : أعطى الفلوس لحظرة الشحاذ مهمندار الجناب العالى .
فصاحت المجذوبة وهى تدفع الدرويش التركى فى صدره مستنكرة :
— سيدى ! . . . سدالله فى وجهه أبواب الرزق . . . ابتعد ياخطاف ودعنى . . .
فصرخ التركى مستنكراً : أنت كافر ... ابن كافر ... ابن كلب أيضاً . . . أنا سيدك . . . وسيد كل فلاحين . . . مفهوم ؟ . . .
ثم بصق على الأرض فسقطت بصقته على قدم زميل له كان يتفرج على ما يدور أمامه فى صمت وقد مد ساقه أمامه فى تراخ .
وعندما سقطت البصقة فوق قدمه ، جذبها بسرعة كمن لدغ ، وصاح فى التركى غاضباً :
— أنت حمار رومى يا جاهين أغا ... ما هذا النجس الذى يتساقط من فمك . . . دع المرأة وابتعد . . .
وقبل أن يرد التركى عليه كان إبراهيم قد نفذ إلى الخان ودار بعينيه فيما حوله وتخير مكاناً يتيح له مراقبة الطريق والتفرج على المارة ، ثم أقبل خادم الخان فطلب منه غداء من لحم وثريد وبلح .
وحاول أن يستغرق بفكره فيما عليه أن يؤديه من أعمال خلال الأيام

المقبلة ، ولكن صياح المتشاجرين وتعليقات الدراويش والشحاذين حال دون ذلك . . . وهدأت المشاجرة بعد قليل ، وجاء الطعام فأقبل عليه فى غير شهوة ، وقد شرد فكره إلى بعيد . . . إلى رشيد .

وبينما هو على هذه الحال ، إذ صكت سمعه صيحة عالية من الخارج أعقبها صوت رجل يقول وهو ينطق الكلمات كالبله :

ــ ابتعد يابن الأبالسة . . . أتظننى خضرة ؟ ؟ . . . ابتعد وإلا قطعت يدك الطويلة . . .

وارتفع صوت آخر ولكنه جهورى يقول :

ــ دعه . . . دعه يأخذها . . . سأعطيك بدلها . . .

وما إن سمع إبراهيم ذلك الصوت حتى جمد فى مكانه وتوقفت يده بين صحفة الثريد وفمه ، ولم يلبث أن قفز من مكانه وهرول نحو الباب ، وشاهده خادم الخان فصاح فيه وهو مشغول اليدين بصحاف أخرى : إلى أين يا أفندى . . . انتظر . . .

ولكن إبراهيم لم يلتفت إليه وبرز إلى الطريق ووقف على عتبة الخان وتلفت حوله . . . ووقع بصره على صاحب الصوت . . . كان رجلا طويلا أسمر ممتطياً صهوة جواد يتوسط الطريق ومن حوله جمع من الشحاذين والدراويش فى ثيابهم المرقعة يلتقطون ما يلقيه إليهم من دراهم . . . وصرخ إبراهيم فى فرح ودهشة :

ــ سلامة ! . . .

فرفع الرجل وجهه ورأى إبراهيم فهتف متعجباً بدوره :

ــ إبراهيم ! . . أنت هنا ! . سبحان الله ! . . .

واندفع بجواده نحو إبراهيم وجمع الشحاذين يتبعه ويتعلق بساقيه . . . ثم ترجل سلامة تاركاً عنان جواده لخادم الفندق الذى كان قد أسرع خلف إبراهيم وقد خيل إليه أول الأمر أنه يحاول الفرار قبل أن يدفع

ما عليه ، والتقى الرجلان فى عناق حار طويل وكأنهما افترقا منذ زمن بعيد .
وجلس الاثنان متجاورين أمام المائدة . . . دعا إبراهيم سلامة إلى مشاركته الغداء ، فرحب سلامة قائلا :
— إننى ، والحق يقال ، أكاد أهضم أحشائى من الجوع . . .
ومد يده إلى الثريد وأخذ يأكل بنهم . . .
وراقبه إبراهيم وهو يأكل وخطر له خاطر أزعجه فسأله فى ارتياب وجل :
— لماذا جئت يا سلامة ؟
— جئتُ لما جئتَ له . . . رسالة إلى الزعيم عمر مكرم .
— هل من جديد ؟
فتوقف سلامة عن الأكل وقال بجد يشوبه قلق :
— لقد تحرجت الأمور واشتد الخطب ، وأضحى الموقف لا يحتمل المزيد من الإبطاء . . . وقد حملنى السيد حسن كريت رسالة أخرى إلى الزعيم عمر مكرم أستعجله فيها بذل المساعى لدى الوالى للإسراع فى إرسال الجيش لإنقاذ رشيد وقد وصلت منذ ساعة إلى دار السيد عمر فعلمت أنه ليس بها ، وأنه لن يعود قبل العصر ، فجئت إلى هنا للتبرك بمقام الحسين إلى أن أتمكن من لقائه . . .
وصمت سلامة ، فضاق إبراهيم بصمته ، فقال وقد نفد صبره :
— لم تحاول إخفاء الأمر عنى ؟ . . . ما الذى حدث ؟ . . .
فقال سلامة بصوت عميق خافت : لقد اكتسح الإنجليز الحماد وكوم الأفراح وأبو مندور وقد تركت رشيد مساء أمس الأول وقد حوصرت من كل جانب ، ونيران مدافعهم تطلق عليها بلا انقطاع . . .
فصاح إبراهيم بدهشة : سقطتْ الحماد و . . . ومراد باشا ؟ . . . والمجاهدون . . .
فأطرق العملاق برأسه فى صمت حزين ، فقبض إبراهيم على ذراعه

فى جزع وقال بصوت يضطرب بالقلق :

— تكلم يا سلامة . . . ماذا حدث ؟ هل . . . ؟

فأجاب سلامة دون أن يرفع وجهه :

— نعم ... استشهد معظمهم ... مراد باشا و ... محسن ، وكثيرون ...

وأدار النبأ رأس إبراهيم ، وبعد لحظات أفاق من ذهوله فقال بصوت أجش يفيض بالمقت : الويل للقراصنة . . . سوف يذوقون على أيدينا أبشع ألوان الانتقام .

— متى ؟ . . .

فنظر إبراهيم إلى سلامة بعينين تتألقان بالثقة فى المستقبل : قريباً ... قريباً جداً يا سلامة . . .

— كيف ؟

— لدينا أربعة آلاف رجل ، وهم مسلحون بدرجات متفاوته . . . وجميعهم على استعداد للسير إلى رشيد ليلقوا بالقراصنة إلى أعماق البحر ...

فصاح سلامة باغتباط : أربعة آلاف ؟ ! ! هذا شىء لا يصدق ! إننا نستطيع بهذا العدد أن نحارب الإنجليز وجيش آل عثمان معاً . . .

— وسوف ننتهى من تدريب جميع الرجال فى خلال يومين ، وعندئذ . . . الويل للإنجليز . . .

— تنتهى من تدريبهم ؟ . . . متطوعون إذن ؟

— نعم .

— مرحى . . لدينا أيضاً جيش الوالى . . .

فقاطعه إبراهيم متضجراً : الوالى ؟ . . . إن مصر لن يحميها سوى أبنائها ، إن محمد على لا يريد أن يتحرك للقتال إلا بأجر ، وحتى لو تقاضاه ، فلن نثق فى اهتمامه بما يحدث فى الشمال . . . إنه كما علمت مخادع لا يعتمد عليه . . .

فقال سلامة بدهشة : ماذا تقول يا إبراهيم ؟

فابتسم هذا بمرارة وقال : الحقيقة المرة ... لقد حاول هذا الرجل أن يموه على الشعب ويوهمه بأنه يهتم بالدفاع عنه ، فأرسل بضع مئات من الجند بقيادة المدعو حسن باشا ، فعبروا النيل إلى الضفة الغربية زاعمين أنهم مسافرون إلى الإسكندرية للحرب ، ولكن .. أتدرى ماذا حدث بعد ذلك ؟

وقبل أن يقول سلامة شيئاً ، استطرد إبراهيم قائلا :

ــ لقد عسكروا فى إمبابة حيث يقضون وقتهم فى نهب الأهالى بالنهار كعادتهم واللهو والشراب بالليل ... وكلما جن الليل عاد قائدهم حسن باشا خفية إلى القاهرة ليبيت فى داره بين أحضان حظاياه ، ثم يذهب فى الصباح إلى الضفة الغربية من جديد وهكذا . . . هذا ما فعله جيش محمد على يا سلامة . . . هل تنوى أن تحلم مرة أخرى بهذا النذل . . .

ــ تبا للأرنؤودى السمين . . .

ــ فلنرجئ أمره الآن ، علينا أن نتدبر الموقف بما لدينا من رجال وسلاح . . .

ــ حسن ، ومتى نسير ؟

ــ بعد ثلاثة أيام على الأكثر . سنقسم الرجال إلى فرقتين . . . ونقسم كل فرقة إلى جماعات صغيرة ... وسوف تقود أنت إحدى الفرقتين وأقود أنا الأخرى . . .

ومضى إبراهيم يسرد له الخطة التى وضعها لهجومه على الإنجليز ثم أخبره أنه سوف يصحبه إلى دار الزعيم عقب صلاة العصر لإبلاغ الرسالة وإقناع الزعيم بإسناد قيادة الفرقة الأخرى التى ستتجه إلى شمال رشيد إليه . فتهلل وجه سلامة ، وانكب على الطعام يلتهمه من جديد وهو يقول :

ــ هذا ما أتوق إليه منذ زمن بعيد .

الفصل الخامس عشر

نظر الديدبان الإنجليزى بطرفى عينيه متعجباً إلى زميله الواقف على الجانب الآخر من باب القاعة الكبرى بدار القنصلية الفرنسية بالإسكندرية بعد أن اتخذها الجنرال فريزر مقراً للقيادة العامة للحملة . . . لم يكن الديدبان قد سمع خلال خدمته الطويلة فى البحرية البريطانية قائداً يثور على معاونيه وأركان حربه بذلك القدر الذى بدا من الجنرال فريزر الذى لم يكف عن الصراخ بصوت غاضب مرتعد منذ أن دخل عليه الجنرال ستيوارت فى ثيابه العسكرية الممزقة . . .

كان القائد العام يبدو كثور هيجته رؤية شىء أحمر ، وقد اكتسى وجهه بحنق قرمزى وأخذت عضلات وجنتيه تتحرك مع كل لفظ ينطق به فبدا وجهه وقد تدلى منه أنفه الضخم المقوس كمنقار الحدأة شيئاً يثير السخرية والرثاء . . .

ضرب الجنرال فريزر المائدة الكبيرة بقبضته وهو يخاطب الرجل ذا السترة الممزقة الذى كان يقف أمامه وقد تقوست كتفاه فى ذلة وانكسار : لقد أحسنت يا جنرال . . . أحسنت الهزيمة والفرار وأجدت تمريغ كرامة صاحبى الجلالة البريطانية فى أوحال مصر . . .

فقال ستيوارت بمرارة : ولكننى فعلت أقصى ما يمكن لقائد أن يفعله . . . لقد نفذت الخطه التى كنت قد عرضتها على سعادتكم ووافقتم عليها . . . وكان كل شىء يسير طبقاً للخطة الموضوعه على ما يرام حتى اللحظة الأخيرة ، فقد اتجهت بقواتى شمالا واحتللت السهول المحيطة برشيد من جهاتها الثلاث ، وانتظرت حتى تمكن الكولونيل من سحق قوات مراد بك وتشتيت بقاياها ثم احتل الحماد وقريتين تقعان فى المنطقة بين الحماد ورشيد وطهر المنطقة من جنود الغدو . . . لم يبق أمامنا عندئذ

سوى أن نقتحم رشيد ونرفع فوقها العلم البريطانى ، وقد مهدنا لهجومنا على المدينة بوابل من قذائف مدافعنا لنرغم حاميتها التى يعضدها نحو ألف من الأهالى المسلحين على التسليم والخروج من وراء المتاريس ولكن مقاومة المدينة اشتدت رغم أننا دمرنا الجانب الأكبر منها بقذائفنا التى بلغ عدد ما أطلقته مدافعنا البعيدة المرمى وحدها عليها ثلثمائة قنبلة ، وقد استمرت مدفعيتنا تصب نيرانها على رشيد اثنى عشر يوماً بلا توقف ، ليلا ونهاراً والمدينة العنيدة لا تستسلم ، بل كان الأهالى رغم ذلك يخرجون من وراء المتاريس ومن جوف الخنادق أحياناً لشن بعض الهجمات التى كانوا يعودون بعدها إلى البلدة وقد خلفوا وراءهم عدداً كبيراً من القتلى من رجالنا . . .

وصمت الجنرال ستيوارت لحظة ثم استطرد قائلا بلهجة فيها رنين ساخر :

ــ إن رسالتكم الأخيرة التى أنبأتمونى فيها بقرب حضور المماليك جعلتنى أتريث فى الهجوم على رشيد ، ولم أر أن من الحكمة فى شىء أن أتعجل اقتحام المدينة . و إن أى قائد ذى عينين كان باستطاعته أن يرى بوضوح أن نجاح حملتنا معلق على حضور المماليك للاستعانة بهم على تطويق المدينة من جميع جهاتها ، فكنا عندئذ نبعث بقوة كبيرة إلى الضفة الشرقية لنسد على رشيد المنفذ الذى كانت تتسرب منه إلى المدينة الإمدادات والمؤن ونتصدى لذلك السيل الدافق الذى قدم من القاهرة . . .

فصاح فريزر بغضب شديد جعل عروق عنقه تنفر بتوتر ظاهر : عن أى شىء تتحدث يا جنرال ؟ أى سيل دافق هذا الذى تحاول أن توحى إلى بضخامته وخطورته ؟ . . . أهذه الجماعات من لابسى ذلك الشىء . . . ال . . . الجلباب ، المتسلحون بالمدى والهراوات والبنادق الأثرية ؟ . . . يا للعار ؟ ! . . .

فقال الجنرال ستيوارت بهدوء : إننى كجندى ألتقى بلابسى الجلابيب هؤلاء فى تجربة مريرة لا أجد وصفاً لهجومهم علينا أصدق من

هذا . . . لقد تدفقت جموعهم من كل جانب غير مبالين بالقذائف أو الرصاص . . . لم يهابوا شيئاً مطلقاً . . . ولا الموت . . .

لقد باغتوا الحماد التي كان الكولونيل ماكلود ما زال مرابطاً فيها فانقضوا على قواته ونشروا بينهم الذعر فاضطروا إلى التراجع نحو رشيد حيث كنت أرابط بخارجها ، ولكن فرسان المصريين أحاطوا بقلب القوة وكان يقوده ماكلود بنفسه فأبادوا معظم رجاله وخر ماكلود المسكين من فوق جواده صريعاً برصاصة استقرت فى رأسه ، وأحاطت جماعة أخرى بالميمنة فقضت عليها وعلى قائدها كابتن ثرلتون ثم تعقبوا الميسرة التى لم تستطع المقاومة طويلا فاستسلمت مع قائدها الماجور وجلسند . . . وتدفق المصريون بعد ذلك نحو الشمال وقاموا بحركة التفاف واسعة طوقوا بها قواتى ، وحملوا علينا بفدائية لم أشهد لها مثيلا طوال حياتى . . . كان كل منهم يقاتل كعشرة من الشياطين ، وكانوا يطلقون صيحات رهيبة وكأنها صرخات زبانية الجحيم وهم يلقون بأجسادهم على المدافع ويتلقون قذائفها فى صدورهم . . . وانقضت أربع ساعات كان جنودى خلالها يتساقطون على الأرض صرعى كأوراق الشجر فى الخريف ... ولن أنسى ما دمت حياً منظر ذلك العملاق الأسمر المخيف ... لقد مزقت إحدى قذائف مدافعنا ساقه اليمنى ، ولكنه ظل رغم ذلك يضرب ويضرب ببندقيته ، ويصرخ فى رجاله يستحثهم لتعقب جماعات جندنا المذعرة وكأن ما أصابه خدش تافه لا يؤبه له . . . إن الشيطان نفسه ليرتعد فرقاً من ذلك الرجل . . .

وصمت الجنرال ستيوارت ثم أدار عينيه فى وجوه الجالسين ، وأخذ يتأمل وجه الأدميرال لويس ثم الجنرال فريزر ثم وجه كابتن بيرسى ذا الحاجبين الكثيفين وهو واقف خلف القائد العام جامداً لا يتحرك وقد علق عينيه بشىء لا يراه ولا يطرف عنه ، وأخيراً استقرت نظرة ستيوارت على وجه جنرال شريروك . . . ثم استرسل فى روايته بصوت مرتجف

فقال : كان الموقف قد انقلب لصالح العدو ، لا سيما بعد أن فتحت رشيد أبوابها وانطلق منها الرجال نحونا وهم يطلقون نيرانهم ، فألقى معظم جنودنا سلاحهم واضطروا إلى التخلى عن مدافعهم للمصريين . . .

عندئذ وجدت أننا قد حوصرنا من كل جانب فآثرت الانسحاب ببقية الجيش نحو الإسكندرية ، ولكن جموع المصريين الكثيفة ظلت تطاردنا بإصرار واستطاعوا أن يصرعوا أثناء عملية الانسحاب عدداً كبيراً من الجند وأن يأسروا منهم المئات . . . فتوجهت إلى أبى قير حيث لذنا بقطع أسطولنا الراسية فى مياهها وعدنا بها إلى هنا . . .

فقال فريزر : كم رجلا فقدنا فى هذه العملية الفاشلة يا جنرال ؟

ـ تسعماثة جندى تقريباً بين قتيل وأسير .

ـ والأسلحة ؟

ـ جميع المدافع والعربات ونحو ألف ومائتى بندقية .

فبدت الحيرة على وجه القائد العام وقال : لست أدرى كيف أعلل ما حدث فى تقريرى إلى لندن ... خسائر فادحة ، وهزيمة فى كل مرة ... اجلس يا جنرال . . .

فتهالك ستيوارت على مقعد مجاور لقائد الأسطول وران على القاعة صمت عميق قطعه فريزر فى النهاية قائلا بخفوت : لقد خدعنا هؤلاء المماليك الأوغاد . . . لقد بعثت إليهم لأذكرهم بوعد زعيمهم الألفى ، ولكن ها قد مضت الأيام ولم نر بارقة أمل واحدة فى معاونتهم لنا . . .

وللمرة الأولى فتح الجنرال شريروك فمه ليتكلم فقال وهو يعبث بأطراف أوراق كانت أمامه على المائدة : أرجو أن يسمح لى القائد العام أن أسجل ملاحظتى على حالة رجالنا . . . إنهم جميعاً فى حالة من الإعياء البدنى والنفسى لا تمكنهم من القتال فى معركة تنتهى بهزيمة العدو . . . ولهذا ، فإننى أرى أن نؤجل الدفع بهم إلى أية معركة أخرى بعض الوقت

حتى يستردوا روحهم المعنوية وثقتهم فى . . . قيادتهم .
ثم صوب الجنرال شريروك نظرة ذات مغزى نحو الجنرال ستيوارت الذى تظاهر بأنه غير معنى بكلماته . . . وهز فريزر رأسه وقال آسفاً : أخشى أن أقول يا جنرال شريروك إنه لن تكون هناك أية معركة أخرى . . . لقد أخفقت الحملة ، فقد تضافرت عوامل كثيرة على إحباطها . . . نكث المماليك بوعدهم ، واستبسل المصريون بدرجة لم ندخلها فى حسباننا وقتل عدد كبير من خيرة ضباطنا ، ولدى نبأ مؤكد بأن محمد على قد استأسد بعد ما تحقق من انتصار المصريين علينا فأعد جيشاً كبيراً يحتمل أن يكون قد تحرك من مرفأ القاهرة فجر اليوم فى طريقه إلى هنا . . . إن الموقف أسوأ مما يمكن تصوره أيها السادة ويبدو أنه لا مفر أمامنا سوى أن نعرض الصلح . . . وتبادل الجميع نظرات سريعة فيها مزيج من الدهشة السافرة والغبطة الخفية ، ولكن رجلا واحداً لم يشارك الجمع غبطتهم الخفية . . . هو فريزر نفسه ، فقد كان يعلم أن اسمه سوف ينقش فى التاريخ مقروناً بالفشل الذريع . . .

وأدار القائد التعس رأسه نحو الضابط الواقف خلفه وقال من بين شفتين سرت فيهما رعشة لا تكاد ترى : كابتن برسى . . . بلغ سير. ولنجتن أن يعزز الحراسة حول الإسكندرية وأن يراقب جميع المسالك إليها . . . إننى لا أثق بكفاية الخضم المحيط بالإسكندرية فى إعاقة تقدم جيش محمد على إذا بدا له أن يقتحم المدينة علينا . ثم التفت إلى الجنرال شريروك وقال : وأنت يا شريروك ، لقد وقع عليك اختيارى لحمل رسالتى التى أعرض فيها الصلح وتسليم المدينة لمحمد على . . . خذ معك بعض ضباطك فى زورق واعبروا المخاضة وجدوا فى ركوبكم للالتقاء بالوالى فى أبعد نقطة ممكنة عن الإسكندرية اليوم . . . لن تكون مهمتك شاقة ، فكل ما أطلبه منه هو أن نتبادل الأسرى والجرحى قبل الرحيل . . .

الفصل السادس عشر

سيطرت فرحة شاملة على الميناء الذى كان قد اكتظ بجموع الشعب منذ الصباح الباكر وازدحمت أركانه بالأعلام والبيارق والزينات الكثيفة ، وبدا الناس فى ثيابهم الملونة المتباينة وكأنهم فى يوم عيد نادر ، وانبعثت من هنا وهناك نغمات المزامير ودقات الطبول المختلطة بزغاريد النساء الواقفات على المشارف المرتفعة وطنين الحديث والتعليقات المرحة التى تعالت من كل مكان ومن كل فم ، فمن قائل : سبحان الله يا أخى ... قادر على كل شىء ... لقد خلق الإنجليز بوجوه حمراء فى لون الخجل الشىء الذى لا يشعرون به ... انظر إلى ضباطهم الواقفين هنالك عند سلم السفينة ... إنهم ينظرون إلى الناس باسمين وكأننا قد جئنا لتحيتهم ولننثر فوقهم الورود والرياحين ... ألا إنهم قوم لا يستحون.

فيرد عليه رجل كان يقف بجواره قائلا : إننى لا أشاركك هذا الرأى ، فلابد أن فيهم من يعرف الخجل ، ولكن الشىء الذى لا أعرفه هو اللون الذى تصطبغ به وجوههم عندما يخجلون ...

ـ لن يكون الأحمر على كل حال ...

فقهقه ثالث وقال : اللون الأصفر يا معلم .

ـ ولم ترجح أنه الأصفر بالذات ؟

فقال الثالث وهو لا يزال يضحك : إننى لا أرجح شيئاً على شىء يا صاحبى ، إنه لون وجه قائدهم الواقف أمام الحرس فى ثيابه المزركشة وكأنه ببغاء قرعاء ...

ـ حقاً ! ما أخف ظله وهو ممتقع هكذا ! . . . إنه يبدو لى كمالك الحزين . . .

وتعالت الضحكات النابعة من القلب تجلجل فى سماء الميناء وتمتزج بنغمات المزامير وزغاريد النساء . . . وفجأة ارتفعت صيحات التكبير والتهليل فى زئير أخذ يقترب على أفواه كتل الشعب المتراصة فتحولت الأبصار نحو باب الميناء وتبعت القلوب العيون ، وارتفعت آلاف الأذرع ملوحة فى فرحة وثقبت الزغاريد الطويلة الدائبة الآذان بلا توقف وكأنها تصدر من حناجر لا تخضع صاحباتها لضرورة التنفس ، وانتابت المزامير والطبول حمى مبهجة فارتفع الزمر والنقر فى نزق وأمعنت الأنغام فى الارتفاع والتلوى نشوانة بفرحة الجلاء . . .

واقترب الموكب المرتقب فى اللحظة التى انطلقت فيها مدافع الإسكندرية وأبراجها تعلن ساعة الخلاص . . . وتقدم مئات الجند من الأتراك بحرابهم المفضضة فانتشروا على جانبى الطريق إلى السفينة ، وبدا الوالى ذو اللحية المستديرة والعمامة الضخمة وهو يسير متبختراً منتفخ الأوداج منتفشاً كديك رومى سمين ، وإلى جواره كان الجنرال فريزر يسير فى ثيابه المزركشة وقبعته المريشة وفى عينيه نظرة زائغة . . . ومن خلف الرجلين ، كان جمع من زعماء المصريين وعلمائهم يتقدمون بهيئتهم الجليلة وهم يردون ببسماتهم الوقورة الواثقة على تحية الشعب لهم وبدا بعض الضباط الأتراك وهم يتبعون الجمع فى خيلاء وحماقة وكأنهم أصحاب ذلك اليوم ، وثلاثة من قواد الإنجليز يسيرون بخطوات قصيرة متلاحقة وعيونهم تنظر إلى الناس فى حذر . . .

وبعيداً عن الجموع الكثيفة المتدافعة للوصول إلى الصفوف الأمامية للتمتع برؤية موكب الجلاء عن قرب ، وقف جمع صغير من الناس ينظرون إلى الإنجليز بتشفى وشماتة ، وقد توسطه شيخان ضاعفت

الأحداث من تجاعيد وجهيهما المؤمنين . . . كانا رجلا يستند إلى عصا وامرأة فى ثياب سوداء ، ومن حولهما وقف ثلاثة رجال ينظرون . . . رجل نحيف طويل يرتدى جبة سوداء وعمامة خضراء وشاب حاد النظرات ممتلئ بالرجولة وعملاق أسمر وخط الشيب شعر فوديه . . . ساقه اليمنى من الخشب . . .

والتفت الشاب ذو النظرات الحادة إلى العملاق ذى الساق الخشبية وقال بصوت مرتفع وهو يشير إلى سفن الإنجليز : انظر يا سلامة ، لقد أخذت آخر سفنهم فى الابتعاد . . . لقد ذهب الإنجليز . . .

ومال طاهر بك على أذن زوجته التى كان الدمع يترقرق فى مآقيها وقال :

— هل ترين السفن وهى تبتعد يا أم إبراهيم . . . انظرى إلى هذه الفرحة وأنصتى إلى الزغاريد . . . لقد تحرر الوطن من الإنجليز ، لقد صنع ولدك محسن هذا اليوم مع إخوانه الشهداء الأبرار . . . لقد استشهد من أجل هذه اللحظة المقدسة ... فى سبيل الله، والوطن ... والحرية ...

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر